شعر إقبال يُعْلِي الهمم ويُذْكي الحماسة للإسلام

□ قال العلَّامة أبو الحسن الندوي عن محمد إقبال: «.. إني أحببتُه، وشُغِلتُ به كشاعر «الطموح»، والحب والإيمان، وكشاعر له عقيدة، ودعوة، ورسالة، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية، وكأعظم ناقدٍ لها، وحاقدٍ عليها، وكداعية إلى المجد الإسلامي، وسيادة المسلم.. أشهد على نفسي أنِّي كلما قرأتُ شعره جاش خاطري، وثارت عواطفي، وشعُرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي للحماسة الإسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره، وأدبه في نظري».

□ وقال الأستاذ عباس العقَّاد: «.. إن إقبالًا هو طرازُ العظمة الذي يتطلَّبه الشرق في الوقت الحاضر، وفي كُلِّ حين؛ لأنها عظمةٌ ليست بالدنيويَّة المادية، وعظمةٌ ليست بالأخروية المُعرضة عن هذه الدنيا، وهو زعيم العمل بين العدوَّتين من الدنيا والآخرة قوّام بين العالمين كأحسن ما يكون القَوَّام».

□ وقال الدكتور طه حسين: «شاعران إسلاميان رفعا مجدَ الآداب الإسلاميَّة إلى الذروة، وفرضا هذا المجد الأدبِّي الإسلاميَّ على الزمان، أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان..».

□ وقال الدكتور عبد الوهاب عزَّام: «لا أعرف كشعر إقبال، معرِّفًا بالحياة، داعيًا إليها، معظِّمًا الإنسان، مُشيدًا بمكانته في هذا العالم، نافثًا الأمل، والهمَّة، والإقدام في نفوس الناس».

□ وقال الدكتور أحمد الشرباصي: «.. ولم أر شاعرًا يتصوَّر للمسلم صورةً مثاليَّةً عاليةً كتلك الصورة التي يرسمها إقبال في مواضع كثيرة عن

شعره، إنَّه يصوِّر المسلم حينًا كأنه ماء في رقَّته، وحديد في شدَّته يهزأ بالصِّعاب، ويعلو على التراب، ويسري مع الأفلاك، ويجري مع الأملاك..».

□ وقال الدكتور أحمد حسن الزيَّات: «.. فإذا كان حسَّان ﵁ شاعر الرسول ﷺ، فإنَّ إقبالًا شاعر الرسالة»[1].

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنْ تَضِق بالجهاد في الأرض ذَرعًا … فحرامٌ مسراكَ فوقَ السَّحاب[2]

□ وقال عن الصبح الذي يريده:

إنَّا لنجهلُ مطلعَ الصُّبح الذي … يُدعى بيوم أو غدٍ في الأزمُن

لكنَّما الصبحُ الذي ارتجَّت له … ظُلَمُ العوالم، من أذانِ المؤمن

كلمات للحياة:

□ لصرعى الحضارة الغربية من تدَنَّت هممهم يقول إقبال: «لم يستطع بريقُ العلوم الغربية أن يُبهر لبِّي، ويعشي بصري، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة».

□ ويقول: «مكثت في أتُون التعليم الغربي؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود».

□ ويقول: «لم يزل، ولا يزال فراعنةُ العصر يرصدونني، ويكمنون لي، ولكني لا أخافهم، فإني أحمل اليدَ البيضاء، إنَّ الرجل إذا رُزِق الحبَّ

---

(١) ديوان «محمد إقبال» (٢/ ١٣، ١٤) ـ إعداد سيد عبد الماجد الغوري- دار ابن كثير- سورية.

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٩).

الصادق، عرف نفسه، واحتفظ بكرامته، واستغنى عن الملوك والسلاطين، لا تعجبوا إذا اقتنصتُ النجوم، وانقادت لي الصِّعاب، فإني من عَبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرَّفت بوطأته الحصباء، فصارت أعلى قدْرًا من النُّجوم، وجرى في إثره الغبار، فصار أعبق من العبير».

□ وفي ذكر مُقوِّمات حياةِ الأمة الإسلامية لابدَّ من علو الهمة في الاتصال الدائم بنبيِّها، والتشبُّع بتعاليمه واتباعه، والتفاني في حبِّه، يقول إقبال: «إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ، وهو أصلُ شرفنا، ومصدر فخرنا في هذا العالم، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى، كان يرقد على الحصير، إنَّ هذا السيد الذي نام عبيدُه على أسرَّة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد، فكان أن وُجدت أمَّةٌ، ووُجد دستورٌ، ووُجدت دولةٌ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعًا، وإذا كان في الحرب فسيفُه يقطر دمًا، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين، بأبي هو وأمي، لم تلد مثله أمٌ، ولم تُنجِب مثلَه الإنسانية، افتتح في العالم دورًا جديدًا، وأطلع فجرًا جديدًا، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع، ويأكل مع مولاه على خِوانٍ واحدٍ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيَّدةً سافرة الوجه، خجلةً مطرقةً رأسها، فاستحيا النبي ﷺ، وألقى عليها رداءه.

نحن أعرى من السيدة الطائية، نحن عراةٌ أمام أمم العالم، لطفه وقهره كلُّه رحمة، هذا بأعدائه، وذلك بأوليائه، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة، وقال: لا تثريبَ عليكم اليوم! نحن المسلمون من الحجاز، والصين، وإيران، وأقطار مختلفة، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد، واحدة الطيب والرائحة، لماذا لا أحبُّه، ولا أحنُّ إليه،

وأنا إنسان، وقد بكى لفراقه الجذع، وحنَّت إليه سارية المسجد؟! إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كله، أنعم بمدينة فيها الحبيب!»[(١)].

□ ويقول في دعائه لربه: «أنت غنيٌّ عن العالمين، وأنا عبدك الفقير، فاقبل معذرتي يوم الحشر، وإن كان لا بدَّ من حسابي فأرجوك يا رب، أن تحاسبني بنجوةٍ من المصطفى ﷺ، فإني أستحي أن أنتسبَ إليه وأكون في أمته، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي»[(٢)].

□ مَن تتبَّع التاريخ علم أن محبةَ سلفنا لنبيهم وعلوَّ همتهم في اتباعه والإيمان به كانت مصدرَ علمهم العميق، وحكمتِهم الرائعة، ومعانيهم البديعة، وبطولتهم الفائقة، وشخصيَّاتهم الفذَّة، وعبقريتهم النادرة، إليه يرجع الفضلُ في غالب عجائب الإنسانية، ومعظم آثارهم الخالدة في التاريخ، فلما تجرَّد الخَلَفُ من ذلك، كانوا صورًا من لحم ودم، وكانوا قطيعًا من غنم.

لقد «اكتست صحراءُ العرب بفضل هذا النبيِّ الأمي حلَّةً أنيقة، وانبتت زهرةً يانعة، إن عاطفةَ الحرية نشأت في ظل هذا النبي، بل ترعرعت ونمت في حِجره، وهكذا كان يوم هذا العالَمُ المعاصر مدينًا لأمسه.

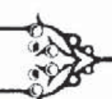
لقد وضع قلبًا نابضًا خفاقًا في جسد الإنسان البارد، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة.

هزم كلَّ طاغوت، وحطَّم كل صنم، وأورق به كلُّ غصن يابس وأزهر وأثمر، إنه رُوحُ معركة بدر وحُنين، وإنه مربِّي الصِّدِّيق والفاروق

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٠- ٣١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣١).



والحسين.

أذانُ صلاة الحرب وجرسُ سورة «الصافات» غيضٌ من فيضه، جعل سيف صلاحِ الدين البتار، ونظرة بايزيد النافذة مفتاحَ كنوز الدنيا والآخرة.

جرعةٌ من كأسه أورت العقل والقلب.

واجتمع بها العلمُ والحكمة والدين والشرع، والإدارةُ والحكم مع قلوب أواهةٍ مخبتة منيبة في الصدور.

إن جمالَ قصر الحمراء، والتاج الذي نال خراج الملائكة، وإعجاب القدِّيسين هو نفحةٌ من نفحاته، ولمحةٌ قصيرة من لمحاته، وومضته من أنواره وبركاته.

ظاهرُه تلك التجلياتُ والنفحات، وباطنُه درٌّ مكنون لم يطلعْ عليه العارفون، ولم يصِلْ إلى كنهه السالكون.

فلا ريب أنه يستحقُّ ثناءَ الجميع وشكرَهم وحمدهم؛ لأنه أسبغ نعمةَ الإيمان على هذه الحفنة من التراب».

شفةٌ تُحيي وعينٌ تَجذبُ	وحَّدا الأشتات هذا عجَبُ [(١)]
يَهَبُ النَّاسَ جديدَ النَّظر	يَجْعَلُ البيدَ كروض نَضِرِ [(٢)]
فترى الأمَّةَ مِنْهُ سائره	بلهيب مِنْهُ حَرَّى ثائره
شررًا في قلبها قَدْ أشعلا	فأحالَ الطِّينَ فيها شُعَلا

(١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتىٰ يصيرا كنفسٍ واحدة.

(٢) يهب الناس نظرًا جديدًا فيرون الأشياء علىٰ غيرِ ما رأوها قبلاً، فرب حسن يصير قبيحًا، وقبيح يصير حسنًا.

سـيرهُ يعطـي الـترابَ البـصَرا فـإذا الـذرَّةُ سـيناءَ تَـرَى [١]

عـارِيَ العقـل بجـداوه كـسا وَهَـبَ الثـورةَ هـذا المفلِـسا [٢]

يـنفُخُ الجمـرة في موقِـده ويـذيب الغِـشَّ مـن عـسجده [٣]

ويفـكُّ العبـدَ مِـنْ أغلالـه ويُجـير القِـنَّ مـن أقيالـه

يجـذب الإنـسانَ شـطر المقـصد جاعـلَ الـشَّرع زمامًـا في اليـدِ

نكتـةَ التوحيـد يوحيهـا إليـه أدبَ الطاعـة يمليـه عليـهْ [٤]

نشيد عُلاة الهِمَم

الـصِّينُ لنَـا والعُـرْبُ لَنَـا والهِنْـدُ لنَـا والكُـلُّ لَنَـا

أضْـحَى الإسـلامُ لنَـا دِيْنًـا وجَمِيْـعُ الكَـوْنِ لَنَـا وَطَنَـا

تَوحيـدُ الله لنـا نـورٌ أعْـددنا الـرُّوحَ لـه سـكَنا

الكـوْنُ يَـزولُ ولا تُمْحـى في الـدَّهْرِ صَـحائفُ سُـؤْددِنَا

بُنيـتْ في الأرضِ مَعابِـدُها والبَيـتُ الأوَّلُ كَعْبَتُنَـا

هُـو أوَّل بيـتِ نحفَظُـهُ بحيـاةِ الـرُّوحِ ويحفَظُنَـا

في ظِـلِّ الـسَّيف تربَّيْنـا وبَنَيْنـا العِـزَّ لِـدَولَتِنَا

---

(١) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء. الذرة لا ترى إلا في نور الشمس، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات، وينير الظلم، فترى الذرة طور سيناء.

(٢) العقل عريان مفلس حتىٰ يمده الرسول فيكسوه ويغنيه أي: هو يهدي العقل ويقويه.

(٣) يشعل العقل، ويميز له الخبيث من الطيب.

(٤) يقيده بالشريعة ليجذبه إلىٰ المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فترىٰ الإنسان حرًا من عبادة الكبراء مقيدًا بالشرع.

عَلَـمُ الإسـلامِ عـلى الأيَّـا | م شـعارُ المجـدِ لِملَّتِنَـا
بهـلالِ النَّـصر يُـضيءُ لنـا | ويُمَثِّـلُ خِنجَـر سَـطْوَتِنَا
وأذانُ المُـسلِمِ كـانَ لـه | في الغَـرْب صـدًى مـن هِمَّتِنَـا
قولـوا لِـسَماء الكـوْنِ لقـدْ | طاوَلْنـا الـنَّجْمَ بِرفعَتِنَـا
يـا دَهْـرُ لقـد جَرَّبـتَ عـلى | نـيرانِ الـشِّدَّة عَزْمتَنَـا
طُوفـانُ الباطِـل لم يُغـرِقْ | في الخَـوفِ سـفينةَ قوَّتنَـا
وعـلى أغـصانِكَ أو كـارٌ | عمَـرَتْ بِطلائِـعِ نَـشأَتِنَا
يـا دجلـةُ هَـلْ سـجَّلت عَـلى | شـطَّيكَ مـآثِرَ عزَّتِنَـا
أمواجُـكِ تَـروي للـدُّنيا | وتُعيـدُ جـواهِرَ سـيرَتِنَا
يـا أرْضَ النـورِ مـن الحَرَمَيْـ | ـن ويـا مـيلادَ شريعَتِنَـا
رَوْضُ الإسـلام ودَوحتُـهُ | في أرْضِـكِ رَوَّاهـا دمُنَـا
ومُحمَّـد كـان أمـيرَ الرَّكْـ | ـبِ يقـودُ الفـوْزَ لنُـصرَتِنَا
إنَّ اسـمَ محمَّـدٍ الهـادي | رُوحُ الآمـالِ لِنَهْـضَتِنَا
دَوَّتْ أنـشودةُ «إقبـالٍ» | جَرَسًـا يَحـدو فيـه الزَّمنَـا
لِيُعيـدَ قوافِلَنـا الأولَى | في المَجـدِ ويبعَـثَ أُمَّتَنَـا[1]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٩١- ٩٢).

الشكوي وجواب الشكوى

«حديث الروح»

لا بد لعالي الهمَّة أن يعرف قدْر نفسه وقدْر أمته.

□ يقول محمد إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

شكْوايَ أمْ نجْوايَ في هذا الدُّجى ... ونجومُ ليلي حُسَّدي أو عُوَّدي

أمسيتُ في الماضى أَعِيْشُ كأنما ... قطعَ الزَّمانُ طريق أَمْسِي عن غَدِي

والطيرُ صادحةٌ على أَفْنَانِهَا ... تبكي الرُّبى بأنينها المتجدِّدِ

قد طالَ تَسْهِيْدِي وطالَ نشيدُها ... ومَدَامِعِي كالطلِّ في الغُصْن النَّدِي

فإلى متى صَمْتِي كأنِّي زهرةٌ ... خَرْسَاءُ لمْ تُرْزَقْ بَراعَةُ مُنْشِدِ

ꕥꕥꕥ

قَيْثَارَتي مُلِئَتْ بأَنَّات الجَوى ... لا بُدَّ للمَكْبُوْتِ مِنْ فَيَضَانِ

صَعدَتْ إلى شَفَتي بلابلُ مُهْجَتِي ... لِيَبِيْنَ عنها مَنطقي ولِسَاني

أنا ما تَعَدَّيْتُ القناعةَ والرِّضا ... لكنَّما هي قصةُ الأَشْجَانِ

أَشْكُوْ وفي فَمي التُّرَابُ وإنَّما ... أَشْكُوْ مُصابَ الدِّين للدَّيَّانِ

يَشْكُوْ لكَ اللهمَّ قلبٌ لمْ يَعِشْ ... إلَّا لحمدِ عُلاكَ في الأَكْوَانِ

ꕥꕥꕥ

قد كانَ هذا الكونُ بلْ وُجودِنا ... رَوْضًا وأزهارًا بغير شَمِيْم

والوردُ في الأَكْمام مجهولُ الشَّذَا ... لا يُرْتَجى وردٌ بغير نَسِيم

بَلْ كَانَتِ الأَيَّامُ قبل وجودِنا ... لَيْلًا لظالِمِها وللمَظْلُوم

لَّـا أطـلَّ مُحَمَّــدٌ زَكَـتِ الرُّبـى ... واخـضَرَّ في البُـسْتَانِ كـلُّ هَـشِيْم
وأَذَاعَتِ الفِرْدَوسُ مَكْنُونَ الـشَّذا ... فـإذا الـوَرى في نُـضْرةٍ ونَعِـيم

مَنْ كان يَهتِفُ باسـم ذاتِـكَ قَبْلَنَـا ... مَـنْ كـان يَـدْعو الواحـدَ القهَّـارا
عَبَدُوا تَمَاثِيـلَ الـصُّخورِ وقدَّسُـوا ... منْ دُونِـكَ الأَحْجـارَ والأشـجارا
عَبَدُوا الكَوَاكبَ والنُّجومَ جَهَالَـةً ... لَمْ يَبْلُغُـوا مِـنْ هَـدْيِهَا أَنْـوَارا
هَـلْ أَعْلَـنَ التَّوْحِيْـدَ داعٍ قَبْلَنَـا ... وهَدَى الشُّعُوبَ إليكَ والأَنظـارا
كُنَّـا نُقَـدِّمُ لِلـسُّيُوفِ صُـدُورَنا ... لَمْ نَخْـشَ يَوْمًـا غَاشِـمًا جبَّـارا

قَدْ كَانَ في اليُوْنَانِ فَلْـسفَةٌ وفي الـ ... ـرُّومَانِ مَدْرَسَةٌ وكـانَ المُلْـكُ في سَاسَانِ
لَمْ تُغْـنِ عَـنْهُم قـوَّةٌ أو ثَـرْوَةٌ ... في المـالِ أو في العِلْـم والعِرْفـانِ
وبِكُـلِّ أرض سـامِرِيٌّ مَـاكِرٌ ... يَكْفِـي اليهـودَ مَؤُوْنَـةَ الـشَّيطانِ
والحِكْمَـةُ الأُولى جَـرَتْ وثنيَّـةً ... في الـصِّين أو في الهِنْـدِ أو طُـوْرانِ
نَحْنُ الذِيْنَ بنُورِ وَحْيِكَ أَوْضَحُوا ... نَهْـجَ الهُـدى ومَعَـالِمَ الإيـمَانِ

منْ ذا الذي رفعَ الـسُّيوفَ ليرفـعَ ... ـمَكَ فَوقَ هاماتِ النُّجـوم مَنـارَا

---

(١) في الأصل هكذا، وفيه اضطراب، ويمكن أن يستقيم الوزن على حساب المعنى فيكون:

قد كان في «اليونان» و«الرومان» مَدْ ... رَسَـةٌ، وكان المُلْكُ في ساسـان

كنَّـا جبـالًا في الجِبَـالِ ورُبَّـما سِرْنـا عـلى مَـوْج البِحـارِ بحـارَا
بِمَعابـدِ الإفْـرَنْج كـانَ أَذَانُنَـا قبـلَ الكَتائِـبِ يفـتحُ الأَمْـصَارَا
لمْ تَـنْسَ إفريْقِيَّـة ولا صَـحْراؤُها سَـجَدَاتِنا والأَرْضُ تَقْـذِفُ نـارَا
وكانَّ ظِـلَّ الـسَّيْفِ ظِـلُّ حديقـةٍ خَـضْراءَ تُنْبِـتُ حوْلنـا الأزْهَـارا

٭٭٭

لمْ نخـشَ طاغوتًـا يحارِبُنـا ولـو نَـصَبَ المنايـا حَوْلنـا أسْـوارَا
نَدْعُو جِهارًا لا إلـه سِوى الَّـذي صـنعَ الوجـودَ وقـدَّر الأقـدارَا
ورؤوسُـنا يـا ربِّ فـوقَ أكفِّنـا نَرْجُـو ثوابَـك مَغْـنَمًا وجِـوارَا
كُنَّـا نـرى الأصـنامَ مـنْ ذهـبٍ فَنَهْـدِمُهَا ونَهْـدِمُ فَوْقَهـا الكفَّـارَا
لـو كـانَ غـيرَ المُسْلمينَ لَحَازَهَـا كنْـزًا وصـاغَ الحِـلْيَ والـدِّيْنَارَا

٭٭٭

كم زُلْزِلَ الصَّخْرُ الأشمُّ فما وهَـى مـنْ بأسِـنا عَـزمٌ ولا إِيْـمَانُ
لـو أنَّ آسـادَ العَـرِيْن تفزَّعَـتْ لمْ يَلْـقَ غـير ثَباتِنـا الميـدانُ
وكـأنَّ نـيران المـدافع في صُـدُوْ رِ المـؤمنينَ الـرَّوحُ والرَّيحـانُ
توحيـدُك الأعـلى جَعَلْنَـا نَقْـشَه نُـورًا يُـضيءُ بـصُبْحِهِ الأزمـانُ
فغدت صدورُ المـؤمنينَ مَـصَاحِفًا في الكـونِ مـسطورًا بهـا القـرآنُ

٭٭٭

مـنْ غيرنـا هَـدمَ التماثيـلَ الَّتـي كانتْ تُقدِّسُها جَهَالاتُ الـوَرى؟
حتَّى هَوَتْ صُـوَرُ المعابـدِ سُـجَّدًا لجلالِ مَنْ خَلقَ الوجـودَ وصـوَّرَا

ومَـن الأُلى حَملُـوا بعـزم أكُفِّهـمْ ... بابَ المدينـةِ يـومَ غـزوَةِ خَيْـبَرَا [(١)]

أمَّــنْ رَمـى المَجُـوس فأطفِئـتْ ... وأَبانَ وجْـهَ الحـقِّ أبْلَـجَ نـيِّرا [(٢)]؟

ومن الـذي بـذَلَ الحيـاةَ رخيـصةً ... ورأى رِضَاكَ أعـزَّ شيءٍ فاشْـتَرَى

نحـنُ الَّـذين استيقظتْ بـأذانهم ... دُنيا الخليقـةِ مِـنْ تهاويـل الكَـرى

نحـنُ الَّـذين إذا دُعـوا لـصلاتهم ... والحربُ تسقي الأرض جامًا أحْمَرا

جعلوا الوجوهَ إلى الحجاز وكبَّروا ... في مـسمع الـرُّوح الأَمـينِ فكـبَّرا

محمودُ مثـل إيـاز [(٣)] قـام كلاهمـا ... لـكَ بالخُـشُوع مطلِّيـا مُـسْتَغْفِرا

والعبـدُ والمَـوْلى عـلى قَـدَم التُّقـى ... سجدا لوجهِكَ خاشعينَ على الثَّرى

بَلَغـتْ نهايـةَ كـلِّ أرض خَيْلُنـا ... وكــأنَّ أبْحُرَهــا رمــالُ البَيْــدِ

في محفـلِ الأكـوانِ كـان هلالُنـا ... بالنَّصر أوضـحَ مـنْ هـلال العِيْـدِ

في كــلِّ موقعــةٍ رفعنــا رايــةً ... للمجــدِ تُعلــنُ آيــة التَّوحيــدِ

أُمَـمُ البرايـا لم تكـن مـن قبلنـا ... إلا عبيــدًا في إســارِ عبيــدِ

بلغــت بنــا الأجيــالُ حرِّيَّاتهــا ... مــن بعــد أصــفادٍ وذلِّ قيــودِ

---

(١) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) هو السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي.

(٣) إياز: هو مولى السلطان محمود السبكتكين.

رُحْماكَ ربِّ هل بغير جِباهِنا عُرِف السُّجودُ ببيتكَ المَعْمُورِ
كانت شِغافُ قُلوبِنا لكَ مُصْحفًا يحوي جلالَ كتابِكَ المَسْطورِ
إنْ لمْ يكنْ هذا وفاءً صادقًا فالخلقُ في الدُّنيا بغير شُعورِ
ملأ الشعوبَ جُناتُها وعُصاتُها مِنْ مُلْحِدٍ عاتٍ ومِنْ مَغْرورِ
فإذا السَّحَابُ جرى سَقاهُم غَيْثَه واختصَّنا بصواعِقَ التَّدْمِيْرِ

قد هبَّتِ الأصنامُ منْ بعد البلى واستيقظت من قبل نفخ الصُّورِ
والكعبة العليا توارى أهلُها فكأنَّهم مَوْتى لغير نُشورِ
وقوافلُ الصَّحراءِ ضلَّ حُدَاتُها وغدتْ منازِلُها ظِلالَ قُبُورِ
أنا ما حسَدْتُ الكافِرْينَ وقدْ غَدَوْا في أنعُمٍ ومواكِبٍ وقُصورِ
بلْ مِحنتي ألَّا أرى في أُمَّتي عملًا تقدِّمه صَداقَ الحُوْرِ(١)

لكَ البريَّةُ حكمةٌ ومشيئةٌ أَعْيَتْ مَذَاهِبُها أُولي الألْبابِ
إنْ شئْتَ أجريتَ الصَّحارى أنهُرًا أو شئْتَ فالأنهارُ موْجُ سرابِ
فإذا دُهي الإسلامُ في أبنائه حتَّى انطوَوْا في محنةٍ وعذابِ
فثراؤُهُم فقرٌ ودولةُ مجدهم في الأرض نهْبُ ثعالبٍ وذئابِ
عاقَبْتَنا عدلًا فهبْ لعدوِّنا عن ذنبه في الدَّهر يوم عقابِ

---

(١) الصداق: المهر.

عاشُـوا بثَرْوتِنـا وعـشْنا دُونَهـم ... للمـوت بـين الـذُّلِّ والإمـلاقِ

الـدِّين يَحْيـا في سـعادةِ أهلـه ... والكـأسُ لا تبقـى بغـير السَّاقي

أين الذين بنار حبِّك أرْسَلُوا الـ ... أنـوارَ بـين محافـل العـشَّاقِ

سـكَبُوا اللَّيـاليَ في أنـينِ دُمـوعهم ... وتوضَّـؤُوا بمـدامع الأشـواق

والشمسُ كانت من ضياءِ وُجُوههمْ ... تَهْـدِي الـصَّباحَ طلائـعَ الإشراقِ

*****

كيفَ انطوتْ أيـامُهم وهـمُ الأُلى ... نشرُوا الهُدى وعَلَوْا مكانَ الفَرْقَدِ [١]

هجروا الدِّيارَ فأين أزمعَ [٢] ركبُهُمْ ... منْ يهتـدي للقـوم أو مـنْ يَقْتـدي

يا قلبُ حسبُك لمْ تُلمَّ [٣] بطـيفِهِمْ ... إلَّا عـلى مـصباح وَجْـهِ مُحَمَّـدِ

فـازُوا مـن الـدُّنيا بمجـدٍ خالـدٍ ... ولهـم خلـودُ الفـوزِ يـوم الموعِـدِ

يـا ربِّ ألْهِمْنـا الرَّشـادَ فـما لنـا ... في الكَـوْن غـيركَ مـنْ وليِّ مُرْشِـدِ

*****

مـا زالَ قَـيْسٌ والغـرامُ كعهـدِهِ ... وربـوعُ لـيلى في ربيـع جمالِهـا

وهِضابُ نجدٍ مـن مَراعيهـا المَهـا ... وظباؤُهـا الخفـراتِ مـلءُ جبالِهـا

والعـشقُ فيَّـاضٌ وأُمَّـةُ أحمـدٍ ... يتَحَفَّـزُ التـاريخُ لاسـتقبالِها

لـو حاولـتْ فـوق الـسَّماء مكانـةً ... رفَّتْ على شمس الـضُّحى بهلالِهـا

---

(١) الفَرْقَد: وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريبًا، ولذا يُهتدي به، وهو المسمَّى «النجم القطبي».

(٢) أَزْمَعَ: قَصَدَ وتوجَّه.

(٣) لمْ تُلِمَّ: لم تنزل بهم.

ما بالُها تَلْقَى الجدودَ عواثرًا [(١)] وتصُدُّها الأيَّامُ عن آمالِها

❊❊❊

هَجْرُ الحبيبِ رمَى الأحبةَ بالنَّوى وأصابهُمْ بتَصَرُّم الآمَالِ

لو قد مللنا العِشْق كانَ سبيلنا أو نستكين إلى هوى وضلال

أو نصنعَ الأصنام ثمَّ نبيعها حاشا الموحِّد أن يذلَّ لمال

أيامُ سلمانَ بنا موصولةٌ وتُقى أُويس في أذانِ بلال

❊❊❊

يا طِيْبَ عَهْدٍ كنتَ فيه مَنارَنا فبعثْتَ نور الحقِّ مِنْ فارانِ

وأسرْتَ فيه العاشقين بلَمْحَةٍ وسقيتهم راحًا بغير دِنَانِ

أحرقْتَ فيه قلوبَهم بتوقُّدِ الإيمان لا بتَلَهُّب النِّيرانِ

لم نبقَ نحنُ ولا القُلُوبُ كأنَّها لم تَحْظَ مِنْ نارِ الهوى بدُخَانِ

إنْ لمْ يُنَرْ وجهُ الحبيب بوصلِهِ فمكانُ حُزْنِ القلب كلُّ مكانِ

❊❊❊

يا فرحة الأيام حين نرى بها روض التَّجلِّي وارفَ الأغصان

ويعود محفلُنا بحسنك مسفرًا كالصُّبح في إشراقه الفينان

قد هاجَ حزني أنْ أرى أعداءنا بين الطِّلا [(٢)] والظِّلِّ والألحان

ونعالجُ الأنفاس نحن ونصطلي في الفقرِ حينَ القومُ في بستان

---

(١) الجُدود العَواثِر: الحظوظ الخائبة.

(٢) الطِّلا: الخمر.

أَشْرِقْ بنـــورِكَ وابعـــثِ الـــبرق القـــديمَ بومـــضةٍ لِفَرَاشـــكَ الظَّمْـــآنِ

ﷺ

أشـــواقُنا نحـــوَ الحجـــازِ تطلَّعـــت — كحنـــينِ مُغْـــترب إلى الأوطـــان

إنَّ الطيورَ وإنْ قَصَصْتَ جناحهـــا — تـــسمو بفطرتهـــا إلى الطَّـــيران

قيثـــارتي مكبوتـــةٌ ونـــشيدُها — قد مـلَّ مـن صـمتٍ ومـنْ كـتمان

واللَّحنُ في الأوتـار يرجُـو عازفًـا — ليبـــوحَ مـــن أسراره بمعـــانِ

والطُّور [(١)] يرتقبُ التجلِّي صارخًا — بهـوى المَشُوْقِ ولَـهْفَةِ الحَـيْرانِ

ﷺ

أكبادُنـا احترقـتْ بأَنَّـات الجَـوى — ودماؤُنـــا نهـــرُ الـــدُّمُوع القـــاني

والعطرُ فاض من الخمائـل والرُّبـا — وكأنَّـــه شـــكوى بغـــير لـــسان

أو ليس منْ هَوْلِ القيامـة أن يكـو — ن الزَّهـــرُ نَمَّامًـــا [(٢)] عـــلى البُـــستانِ

النَّمـــلُ لا يخـــشى ســـليمانًا إذا — حَرَسَـــتْ قُـــراه عنايـــةُ الـــرَّحمن

أرشدْ براهِمَـةَ الهُنـودِ ليرفعـوا الـــ — إســـلامَ فـــوقَ هياكـــلِ الأَوْثـــانِ

ﷺ

ما بالُ أغصان الصَّنوبر قـد نـأت — عنهـــا قَمَارِيُهَـــا [(٣)] بكـــلِّ مكـــانِ

وتعرَّتِ الأشجارُ من حُلـل الرُّبـا — وطيورهـــا فـــرَّت إلى الوديـــانِ

---

(١) الطُّوْر: هو الجبل الذي تجلَّىٰ الله عليه لموسىٰ عليه الصلاة والسلام وكلَّمه.

(٢) نمَّامًا: هو مَن يُزيِّن للناس الكلام بالكذب.

(٣) القماريُّ: هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت.

يــا ربِّ إلَّا بُلْـبُلًا لم ينتظِـرْ ... وحيَ الرَّبيع ولا صَبَا[1] نيْسانِ
ألحانُـه بحـرٌ جـرى مـتلاطِمًا ... فكأنَّـه الحـاكي عـن الطُّوفـانِ
يا ليت قـومي يسمعون شكاية ... هي في ضميري صرخـةُ الوِجدانِ

جواب الشكوى

□ ثم نظَم محمد إقبال بعد هذه القصيدةِ قصيدةً أخرى، وضَّح فيها تقصير المسلمين، وإهمالهم لدينهم، وعدم إتقانهم أمر دنياهم، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

كـلام الـرُّوح لـلأرواح يَسْري ... وتدركـه القلـوب بـلا عنـاءِ
هتفـتُ بـه فطـارَ بـلا جنـاح ... وشـقَّ أنينُـه صـدرَ الفـضاءِ
ومعدنُـه تُـرابيٌّ ولكِـنْ ... جَـرَتْ في لفظِـهِ لغـةُ السماءِ
لقـد فاضـت دمـوع العِشق فيـه ... حـديثًا كـانَ عُلْـوِيَّ النـداءِ
فَحَلَّـقَ في ربـا الأفـلاكِ حتَّـى ... أهـاجَ العـالم الأعْـلَى بُكـائِي

❊❊❊

تحـاوَرَتِ النُّجـومُ وقُلْـن صـوتٌ ... بقـرب العـرش موصـول الـدُّعاءِ
وجاوبـت المجـرَّة عـلَّ طيفًـا ... سَرَى بـين الكواكـب في خَفَـاءِ
وقـال البـدرُ هـذا قلـبُ شـاكٍ ... يُواصِـل شـدْوهُ عنـد المساءِ
ولم يعرفْ سوى رضوان صوتي ... ومـا أحـراه عنـدي بالوفـاء
ألمْ أكُ قبـلُ في جنّـاتِ عَـدْنٍ ... فـأخرجني إلى حـينٍ قـضائي

---

(١) صبَا: ريح طيِّبة تهبُّ من جهة المشرق.

وقيـل هـو ابـن آدم في غُـرُورٍ — تجـاوزَ قـدْرَه دونَ ارْعِـواءِ[1]

لقـد سَـجَدَتْ ملائكـةٌ كـرامٌ — لهـذا الخلـق مـن طـينٍ ومـاءِ

يُظَـنُّ العِلْـمُ في كيـفَ وكَـمْ — وسرُّ العَجْـز عنـه في انطـواءِ

ومـلءُ كُؤوسِـهِ دمـعٌ وشـكوى — وفي أنغامـهِ صـوتُ الرَّجـاءِ

فيـا هـذا لقـدْ أبلغـتَ شـيئًا — وإن أكثـرتَ فيـه مِـنَ المِـراءِ

❊❊❊

عَطايانـا سـحائبُ مُرْسَـلاتٍ — ولكـنْ مـا وجـدنا السَّـائلينا

وكـلُّ طريقنـا نَـوْرٌ[2] ونـورٌ — ولكـن مـا رأينـا السَّـالكينا

ولم نجـدِ الجـواهرَ قـابلاتٍ — ضـياءَ الـوحي والنُّـور المبينـا

وكـان تـراب آدم غـيرَ هـذا — وإنْ يـكُ أصـله مـاءً وطينـا

ولو صـدقوا ومـا في الأرض نهـرٌ — لأجرينـا السَّـماء لهـم عُيونـا

❊❊❊

وأخـضعنا لِمُلْكِهِـم الثُّريَّـا — وشـيَّدنا النُّجـوم لهـم حُـصونا

ولكـنْ أَلْـحَدُوا في خـيرِ ديـن — بنـى في الشَّـمس مُلْـكَ الأوَّلينـا

تُـراثُ محمَّـدٍ قـد أهملـوه — فعاشـوا في الخلائـق مُهْمَلِينـا

تـولَّى هـادمُو الأصـنام قُـدْمًا — فعـاد لهـا أولئـك يـصنعونا

أبـاهم كـان إبـراهيمَ لكـن — أرى أمثـال آزَرَ[3] في البنينـا

(١) ارعواء: كف وارتداع.

(٢) النَّور: الزهر.

(٣) آزر: اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام حِرْفةً.
=

وفي أَسْــلافِكم كانــتْ مزايـا بكــلِّ فــم لــذِكراها نَــشِيْدُ
تضُوعُ[(١)] شقائقُ الصَّحراءِ عِطْرًا بريَّاهــا وتبتــسمُ الــورودُ
فهـلْ بقيـتْم محاسـنُهم لـديكم فيجمــل في دلالِكــم الــصُّدودُ
لقــد هــاموا بخــالقهم فنــاءً فلــم يكتــب لغـيرِهِمُ الخلـودُ
وكــوثرُ أحمــد مــنكم قريــبٌ ولكــنْ شــوقكم عنــه بعيــدُ

❋❋❋

وكمْ لاح الصَّباحُ سَنًا[(٢)] وبُشْرى وأذَّنــتِ القَــماري والطُيــورُ
وكــبَّرت الحمائــل في رباهــا مطلِّيــةً فجاوبهــا الغــديرُ
ونـوم صـباحكم أبـدًا ثقيـلٌ كــأنَّ الــصبح لم يدركــه نــورُ
وأضحى الصَّوم في رمـضان قيـدًا فلـيس لكـم بـه عـزمٌ صـبورُ
تمــدَّن عــصرُكم جمـع المزايـا ولــيس بغائــبٍ إلا الــضمير

❋❋❋

لقــد ذهــب الوفــاءُ فـلا وفـاءً وكيــف ينــالُ عهــدي الظَّالمينـا
إذا الإيــمانُ ضــاعَ فــلا أمــانٌ ولا دُنْيــا لمــن لم يُحْــي دِينــا
ومَــنْ رَضِيَ الحيــاةَ بغـير ديـن فقــدْ جعــلَ الفنــاء لهــا قَرينــا

حِرْفةً.

(١) تَضُوعُ: تفوح وتنتشر.

(٢) السَّنا: الضياء.

وفي التوحيـــد للْهِمَــم اتِّحـــادٌ ولـــنْ تبنـــوا العُـــلا مُتفرِّقينـــا
تـــساندتِ الكواكـــبُ فاســـتقرَّتْ ولـــولا الجاذبِيَّـــةُ مـــا بقِينـــا

۞۞۞

غَـــدَوْتُمْ في الـــدِّيار بـــلا ديـــارٍ وأنـــتم كـــالطُّيورِ بـــلا وكُـــورِ
وكـــلُّ صـــواعق الـــدُّنيا ســـهامٌ لبيـــدَرِكم وأنـــتم في غـــرورِ
أهـــذا الفقـــر في علـــم ومـــالٍ وأنـــتم في القطيعـــةِ والنُّفـــورِ
وبيـــعُ مقـــابرِ الأجـــدادِ أضـــحى لـــدى الأحفـــادِ مـــدعاةُ الظُّهـــورِ
سَيُعْجَبُ تـــاجرو الأصـــنام قُـــدْمًا إذا ســـمعوا بتجَّـــار القبـــورِ

۞۞۞

مِـــن المتقـــدِّمين إلى المعـــالي علـــى نهـــج الهدايـــة والـــصَّواب
ومِـــن جبهـــاتهم أنـــوارُ بيتـــي وفي أخلاقهـــم يُـــتلى كتـــاب
أمـــا كـــانوا جُـــدُودكم الأوالي بنـــاةَ المَجْـــد والفـــنِّ العجـــابِ
ولـــيس لكـــم مـــن المـــاضي تـــراثٌ سوى شَكْوَى اللُّغوبِ [1] والاكتئابِ
ومـــن يَـــكُ يومـــهُ في العـــيش يأسًـــا فـــما غَـــدُهُ ســـوى يـــوم العـــذابِ

۞۞۞

أتـــشكُو أنْ تـــرى الأقـــوامَ فـــازُوا بمجـــدٍ لا يـــراه النَّائمونـــا
مَـــشَوْا بهـــدي أوائِلِكـــم وجـــدُّوا وضـــيَّعتم تـــراث الأوَّلينـــا
أيُحْـــرمُ عامـــلٌ وردَ المعـــالي ويـــسعدُ بـــالرُّقيِّ الخامِلُونـــا

(١) اللُّغوب: التعب والإعياء.

ألَــيسَ مــن العدالــة أنَّ أرْضِي يكــون حــصادُها للزَّارعينــا
تَجَـلِّي النُّـور فـوق الطُّـور بـاقٍ فهل بقيَ الكليمُ [1] بطُـورِ سِـينا؟

ألمْ يُبْعَــثْ لأُمَّــتكم نبــيٌّ يوحِّــدكم عــلى نهــج الوئــام
ومــصحفُكم وقبلــتُكم جميعًــا منــارٌ للأخــوة والــسَّلام
وفــوق الكــل رحمــنٌ رحــيمٌ إلــهٌ واحــدٌ ربُّ الأنــام
فــما نــارُ ألفــتكم تــولَّى وأمــسيتُم حيــارى في الظَّــلام
وحــسن اللُّؤْلُــؤ المكنــونِ رهــنٌ صــوغ العِقْــد في حُــسْن النِّظــام

وكيــف تغــيَّرتْ بكــمُ اللَّيــالي وكيــف تفرَّقــت بكــمُ الأمــاني
تــركتم ديــنَ أحمــدَ ثــم عُــدْتُم ضــحايا لِلْهــوى أو للهــوان
رقيُّ الشَّعبِ قــد أضــحى لــديكم تقــرِّرُه صــلاحيةُ الزمــانِ
وكيــف تُقــاسُ أوهــامٌ ولغــوٌ بحكمــة منــزلِ الــسَّبع المثــاني
أرى نــارًا قــد انقلبــت رمــادًا ســوى ظــل مــريض مــن دخــانِ

أَرى الفقــراءَ عبَّــادًا تقــاةً قيامًــا في المــساجد راكعينــا
هــم الأبــرارُ في صــوم وفطــرٍ وبالأســحارِ هُــمْ يَــسْتَغْفِرُونا
وليس لكــم ســوى الفقــراء سـترٌ يــواري عــن عيــوبكم العُيُونــا

---

(١) الكليم: لقب سيدنا موسىٰ عليه والصلاة والسلام.

أضـلَّت أغنيـاءكم الملاهـي | فهـم في ريـبهم يتردَّدونـا
وأهـلُ الفقـر مـا زالـوا كنـوزًا | لـدينِ الله ربِّ العالمينـا

❧❧❧

أرى التفكـيرَ أدركـهُ خمـولٌ | ولم تبـقَ العـزائمُ في اشـتعال
وأصبحَ وَعْظُكم من غير سِحْرٍ | ولا نـورٌ يُطِـلُّ مـن المقـال
وعنـد النَّـاس فلسفةٌ وفكـرٌ | ولكـن أيـن تلقـين (الغـزالي [1])
وجلجلَـةُ الأذان بكـلِّ أرض | ولكـن أيـن صـوتٌ مـن بـلالِ
منـائرُكم علـتْ في كـلِّ حـيٍّ | ومـسجدُكم مـن العبَّـاد خـالي

❧❧❧

فـأَينَ أئمـةٌ وجنـودُ صـدقٍ | تهـابُ شَـبَاةَ [2] عـزمهمُ الحـرابُ
إذا صـنعوا فـصنعهمُ المعـالي | وإنْ قـالوا فقـولهُم الـصَّوابُ
مـرادُهم الإلـهُ فـلا ريـاءٌ | ونهجهـمُ اليقـين فـلا ارتيـابُ
لأمَّـتهمْ وللأوطـانِ عاشـوا | فلـيس لهـم إلى الـدُّنيا طِـلابُ
كمثل الكأس تُبْصِرُها دِهاقًا [3] | ولـيس لأجلهـا صُـنِع الـشَّرابُ

❧❧❧

جهـادُ المـؤمنين لهـمْ حيـاةٌ | ألا إنَّ الحيـاةَ هـيَ الجهـادُ

---

(١) الغزالي: هو أبو حامد محمد الغزالي، أحد أعلام المسلمين، لقب «بحجة الإسلام» صاحب مصنفات سائرة، توفي عام ٥٠٥هـ بمدينة «طوس».
(٢) شَبَاةَ، جمعها الشَّبَا والشبوات: شباة كل شيء، أي حدُّ طرفه.
(٣) دِهاق: مُمْتلئ، يقال: كأس دهاق، أي ممتلئ.

عقائــدُهم ســواعدُ ناطقــاتٌ ... وبــالأعمال يثبــتُ الاعتقــادُ

وخــوفُ المــوتِ للأحيــاء قــبرٌ ... وخــوفُ الله للأحــرار زادُ

أرى مــيراثهم أضــحى لــديكم ... مضاعًا حيثُ قـد ضـاعَ الرَّشـادُ

ولــيس لــوارثٍ في الخــير حــظٌّ ... إذا لم يحفــظِ الإرثَ اتِّحــادُ

لأيِّ مــآثر القــوم انْتَــسَبْتُم؟ ... لتكتــسبوا فخــارَ المُــسلمينا

فأين مقامُ ذي النُّورين[1] مـنكم ... ودولــةُ عــزِّه دُنيــا ودِيْنَــا

وفقــرُ عــليٍّ الأواب هــلا ... ربحــتم فيــه كنــزَ الفاتحينــا

أقمــتمْ في الــذُّنوب وفي الخطايــا ... وتغتــابون حتَّــى الــصَّالحينا

وهم ستروا عيوب الخلـق فـضلًا ... وإن كــانوا أبــرَّ المُتَّقينــا

أريكةُ قيصَر[2] وسريرُ كِسرى[3] ... قــد احْتَمَيــا بملكهــم العَمِــيم

وأنــتم تطمحــون إلى الثُّريــا ... بــلا عــزم ولا قلــبٍ ســليم

تـضيعون الإخـاء وهـم أقـاموا ... صروحَ إخــائهم فــوق النُّجــوم

طلبــتُمْ زهــرةَ الــدنيا وعــدْتُهم ... بـلا زهـرِ يـضوعُ[4] ولا شـميم

وكــان لــديهم البــستان محــضًا ... وهــم أصــحاب جنــات النَّعــيم

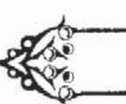
---

(١) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) قيصر: لقب ملوك الروم.

(٣) كسرىٰ: لقب ملوك الفرس.

(٤) يَضُوع: يفوح وينتشر.



يُعيدُ الكونُ قصَّتهم حديثًا ويُنشئ منْ حديثهمُ الفنونا

فكمْ نَزَحُوا عنِ الأوكارِ شَوْقًا إلى التَّحْلِيقِ فَوْقَ العالمينا

ويأسُ شبابكم أدمى خطاهم فظنُّوا فيه بالدِّين الظُّنونا

هي المدنيَّةُ الحمقاءُ ألقتْ بهم حول المذاهب حائرينا

لقد صنعتْ لهم صنمَ الملاهي لتحجبَ عنهم الحَرَمَ الأمينا

لقد سئم الهوى في البِيْدِ قَيْسٌ [١] وملَّ من الشِّكاية والعذاب

ويحاولُ أن يُباح العِشْقُ حتى يرى ليلاه [٢] وهي بلا حجابِ

يريدُ سفور وجهِ الحُسن لَّما رأى وجهَ الغرام بلا نقابِ

فهذا العهد أحرقَ كلَّ غرس من الماضي وأغلقَ كلَّ بابِ

لقد أفنت صواعقُه المغاني وعاثتْ [٣] في الجبال وفي الهضابِ [٤]

هي النَّارُ الجديدة ليس يُلقى لها حطبٌ سوى المَجْدِ القديم

خُذوا إيمانَ إبراهيمَ تَنْبُتْ لكمْ في النَّار روضاتُ النَّعيم

ويذكو من دم الشهداء وردٌ سَنِيُّ العطر قدسيُّ النَّسيم

---

(١) قيس: من أشهر عشاق العرب.

(٢) ليلى: من أشهر عاشقات العرب.

(٣) عَاثَتْ: أفسدتْ.

(٤) هَضاب: جمع هَضْبة، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض.

ويلمعُ في سماء الكون لونٌ ... من العُنَّاب مخضوبُ الأديم
فلا تفزعْ إذا المَرْجانُ[1] أضحى ... عقودًا للبراعم والكُروم

ﮓﮔﮕﮖﮗ

فكَمْ زالتْ رياضٌ منرباها ... وكم بادتْ نخيلٌ من في البوادي
ولكنْ نخلةُ الإسلام تنمو ... على مرِّ العواصف والعوادي
ومجدُك في حِمَى الإسلام باقٍ ... بقاءَ الشَّمس والسَّبع الشِّدادِ
وإنَّك يوسفُ في أيِّ مصرٍ ... يرى كنعانَه[2] كلَّ البلادِ
تسير بك القوافلُ مُسرعاتٍ ... بلا جرس ولا ترجيع حَادِي

ﮓﮔﮕﮖﮗ

ضياؤك مشرقٌ في كلِّ أرض ... لأنكَّ غير محدودِ المكانِ
بَغَتْ أممُ التَّتار[3] فأدركتْها ... من الإيمان عاقبةُ الأمانِ
وأصبح عابدو الأصنام قُدْمًا ... حماةَ الحِجْر[4] والرُّكن اليماني[5]
فلا تجزع فهذا العصر ليل ... وأنت النَّجم يشرق كلَّ آنِ
ولا تخشَ العواصفَ فيه وانهضْ ... بشُعلتك المضيئةِ في الزَّمانِ

---

(١) المَرْجَان: صغار اللؤلؤ.
(٢) كنعان: أرض فلسطين.
(٣) التَّتار: قبائل كانت تسكن في أواسط آسيا، أصلهم من المغول، اشتهروا بغزواتهم، وأسلم كثير منهم بعد هجومهم علىٰ بغداد.
(٤) الحجْر: يريد به الشاعر حجْر الكعبة.
(٥) الركن اليَمَاني: هو ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود.

أعـدْ مـن مـشرقِ التَّوحيـد نـورًا | يـــتمُّ بـــه اتِّحـــاد العالمينـــا
وأنـــت العطـــرُ في روض المعـــالي | فكيـــفَ تعـــيش محتبـــسًا دفينـــا
وأنـــت نـــسيمةُ فاحمـــلْ شـــذاه | ولا تحمـــلْ غبـــارَ الخاملينـــا
وأرســـل شـــعلةَ الإيـــمان شمـــسًا | وصُـــغْ مِـــنْ ذرةٍ جـــبلًا حـــصينا
وكـــن في قمَّـــةِ الطُّوفـــان موجًـــا | ومُزنًـــا يمطـــر الغيـــث الهَتُونـــا

فباســـم محمـــدٍ شـــمس البرايـــا | أقيمـــت خيمـــةُ الفلـــك المُنـــيرِ
تَلألأَ في الريـــاض وفي الـــصحارى | وفـــوقَ المـــوج والـــسيل المغـــيرِ
ونَـــبْض الكـــونِ منـــه مُـــسْتَمِدٌّ | حرارتَـــه عـــلى مـــرِّ العـــصورِ
ومـــن مـــراكش [(١)] يغـــزو صـــداه | رُبُـــوعَ الـــصِّين بالـــصَّوت الجهـــيرِ
ومـــا مـــشكاةُ هـــذا النُّـــور إلا | ضـــميرُ المـــسلم الحـــرِّ الغَيُـــورِ

ورفـــعُ الـــذِّكر للمختـــار رفـــعٌ | لقـــدرك نحـــو غايـــاتِ الكـــمالِ
فكن إنسانَ عـيْنِ الكـون واشْـهد | مقامـــك عاليًـــا فـــوقَ المعـــالي
بخنجرِ عزمـك الوثَّـاب لاحـت | عـــلى الأعـــلام أنـــوارُ الهـــلالِ
نـــداؤك في العنـــاصر مـــستجابٌ | إذا دوَّى بـــصوتٍ مـــن بـــلالِ
وعقلُـك في الخطـوب أجـلُّ درع | وعـــشقُك خـــير سـيفٍ للنِّـــضالِ

---

(١) مراكش: مدينة تقع في المغرب الأقصى.

خلافــةُ هــذه الأرضِ اســتقرَّت | بمجــدك وهــو للــدنيا ســماءُ
وفي تكبيرهـــا القـــدسيِّ يبـــدو | صــغيرًا كــلُّ مــا ضــمَّ الفــضاءُ
فيــا مــنْ هــبَّ للإســلام يــدعو | وأيقــظ صــدقَ غيرتــه الوفــاءُ
ســترفعُ قَــدْرَكَ الأقــدارُ حتــى | تــشاهد أنَّ ســاعدك القــضاءُ
وقيل لـكَ احْـتكِمْ دنيـا وأخـرى | وشــأنُك والخلــودَ كــما تــشاءُ [1]

□ولله در القائل:

أيهـا الـساقي! مـن النـور اسـقني | وآسِ في قلبــي جِــراح الــزَّمَنِ
شـعلةُ المــاء التــي مــن زمــزم | قيــصرٌ يعنــو لهــا كالخــدم
مُقلــةُ المُبــصر منهــا أبــصرُ | وشِــعابُ الفِكــر منهــا أنــور
تجعــلُ الريــشةَ طــودًا قــاهرا | وتُــري الثعلــب ليثًــا زائــرا
هــيَ تــسمو للثُريَّــا بــالثَّرى | وتعــي القطــرةُ منهــا أبحــرا
امــلأ الكــأس بــصفوِ ونــيِّرِ | نــوِّرِ الفكــرَ بنــورِ القمــرِ [2]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٩٣- ١١٠).

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٢٩).

حياة الذات بعلو همتها بتخليق المقاصدِ وتوليدها:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنَّما يُبقي الحياة المقصدُ ... جَرَسٌ في ركبها ما تَقصد (١)
سِرُّ عيش في طِلابِ مُضمَر ... أصلُه في أمل مستترُ
أُحيِ في قلبكَ هذا الأملا ... لا يَحُلُ طينُك قبرًا مُهمَلا
يخفِقُ القلب به بين الصدورْ ... هو في صدرك مرآة تُنير
يهبُ التربَ جَناحًا يَصعَد ... ولموسى العقل خَضْرًا يُرْشِد (٢)
إنما يحيا الفؤادُ الآملُ ... وإذا حيَّ يموت الباطلُ
فإذا عيّ بتخليق المُنَى ... هِيضَ سِقطاه وأودَى وَهَنا
أملُ الذاتِ لهيبٌ يَستعِرْ ... أو هو الموج الذي لا يستقِرْ
وهَقُ المقصودِ حَبْل الأمل ... إنَّه خَيْط كتاب العمل (٣)
ومماتُ الحيِّ فقدان الرجاءْ ... يُطْفِئُ الشعلةَ فِقدانُ الهواء (٤)

ﰡﰡﰡ

(١) المقصد مثل جرس القافلة ينبهها للسير.
(٢) هو من العقل كالخَضِر من موسىٰ يهديه ويبين له الحقائق. في بيان: أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها.
(٣) الوهق: حبل فيه أنشوطة تمسك به الخيل المسيبة، ويصاد به. وخيط الكتاب: الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلىٰ بعض.
(٤) «ديوان إقبال» (١/ ١٣٦).

□ وعن دناءَة الهمم يقول:

جـوهرُ الآسـادِ أضـحى خزَفَـا حـين صـار القـوتُ هـذا العلَفـا
ذلـكَ القلـبُ عـن الـصَّدر نـأى جـوهر المـرأة فيهـا صَـدِئا
فـذوى في القلـب شـوق العَمـلِ وهُيـامُ الـسَّعي خَلْـف الأمـل
ذهـب الإقـدامُ والعـزمُ الأليـلْ والـسَّنا والعـزُّ والمجـدُ الأثيـلْ
بُـرثن الفـولاذِ فيهـا قـد وَهَـنْ واسـتكان القلـب في قـبرِ البـدن
ونـما الخـوفُ بـنقص المنَّـة قَطَـع الخـوفُ جـذور الهمَّـة
كـلُّ داءٍ في سـقوط الهمـم يجعـل الأحيـاء مثـل الـرِّمَم
نامـت الأسـد بـسحر الغـنم سـمَّتِ العجـزَ ارتقـاءَ الأُمـم [1]

وقال في الخَوَر والعجز:

□ قال إقبال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يحـسَب العجـزَ قُنوعًـا خـانِعُ لـصروف الـدهر ذلٌّ طـائِعُ
قـاطعُ سُـبلَ الحيـاة الخَـوَرُ قَلْبُـه خوفًـا وكِـذْبًا يُـضْمرُ
قَلْبُـهُ مـنْ كـلِّ خـيرٍ فـارغُ ليثـه في كـلِّ خبـثٍ والـغُ
في كمـينٍ راصـدٌ هـذا اللئـيمْ فاحذرنْ يا صاحبَ العقل السليمْ
احـذرنْ يـا صـاحِ مـنْ تزيينـه إنَّـه الحِربـاء في تلوينـه
إنَّـه يخفـى عـلى أهـل النظـر لَـبَسَ الحـقّ علـيهم واسـتتر

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٤٦ - ١٤٧).

في ثيـاب اللـين حينًـا يظهـرُ وهـو حينًـا في اتـضاعِ يُـستَر
وهـو طَـورًا في ثيـابِ المُجـبَرِ وهـو طـورًا في حجـابِ القَـدَر
وهـو حـينً في لبـاس الـتَّرف يُلبسُ الصِّحةَ ثوبَ الدَّنَف [(١)]

وعالي الهمّة:

□ يقول عنه إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

في رمـاد اليـوم منَّـا ترقُـدُ شُـعلةٌ يرمـي بهـا الكـونَ الغـدُ
روضـةٌ تُـضمرها أكمامُنـا ضاءَ مـن صـبح غـدٍ أبـصارُنا [(٢)]
أنـت يـا فـارسَ طِـرف الـزَّمن! أنـت يـا نـورًا لعـين الممكـنِ
موكـبَ الإنـشاءِ هيَّـا زيِّـنِ وتمكـنْ في سـواد الأعْـيُن
قُـمْ فـسكِّن مـن ضَـجيج الأمـم وامـلأ الآذان زهـرَ الـنَّغَم
جـدِّدَنْ في النـاس قـانون الإخـاء وأدِرهـا كـأسَ حـبٍّ وصـفاءْ
أبلـغ النـاس رسـالاتِ الـسَّلامْ وأعـدْ في الأرض أيـام الوئـام
مـنْ بنـي الإنـسان أنـت الأمـلُ أنـت مـنْ ركـب الحيـاة المنـزلُ
أذْبلَـتْ كـفُّ الخريـف الـشجرا فاغـدُ في الـروض ربيعًـا نـضِرا
نحن مـن فيـضك نـسمو للقُلَـلْ في جهاد الكون نمضي كالشُّعل [(٣)]
أيُّهـا الغافـلُ عـمَّا حُمِّـلا أنـت في الكـونين أعـلى منـزلا

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٨- ١٥٩).
(٢) الأكمام جمع كِم:الزهرة قبل أن تنفتح، يقول: إن الكم عندنا سينفتح عن روضة، وعيوننا تُضيء بنور المستقبل.
(٣) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٧- ١٥٩).

افـــتحنْ عينـــا وأُذنًـــا وفـــما تُبْـــصرِ الحـــقَّ طريقًـــا مُعلَـــما [1]

قوة الذات وعلو الهمة:

قـــوةَ الـــذَّات احفظنهـــا أبـــدا وكـــنِ الألمـــاس لا تقطـــر النـــدى
أنـــضج القطـــرة كـــالطَّود تُـــرى حـــاملًا غـــيمًا مُفيـــضًا أنهـــرا
أثبـــتِ الـــذَّات وفيهـــا حَقِّـــق فِـــضةً كـــن بالتئـــام الزِّئبـــق [2]
ومـــنَ الـــذَّات أَبِـــنْ أسرارهـــا حـــرِّكَنْ عـــن لحنهـــا أوتارهـــا [3]

قصة الألماس والفحم:

قـــصةٌ أخـــرى بهـــا أُدلي إليـــك يفـــتح الحـــقُّ بهـــا بابًـــا عليـــك:
قـــال للألمـــاس فحـــمُ المعـــدِن: يـــا حليـــفَ النُّـــور طـــول الـــزَّمن!
نحـــن صـــنوان نَمانـــا والـــدُ أصـــلُنا في الكـــون أصـــلٌ واحـــدُ
وعـــلى التيجـــان أنـــت الزينـــةُ وأنـــا في الـــتُّرب حظِّـــي الذلَّـــة
لـــك حـــسنٌ في المرايـــا يـــسطعُ وأنـــا مِـــنْ كـــفٍّ تـــرب أضـــيَع
مـــن ظلامـــي قـــد أضـــاء المجمـــرُ ورمـــــادًا آض فيَّ الجـــــوهر
مَـــوطئ الأقـــدام بـــين البـــشر قـــدرموا في مهجتـــي بالـــشَّرَر
إنَّ حـــالي ببكـــاء لحَـــرى هل ترى أصلي وفصلي هل تـرى؟

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ١٥٧ - ١٥٩).
(٢) كن في صلابة الفضّة باجتماع الذرّات المضطربه كالزئبق.
(٣) «ديوان إقبال» (١/ ١٦٣).

إنَّنـي مـوج دُخـانٍ يُعقَـد ... كـلُّ مـا فيَّ شرارٌ يَـصعدُ

ومـن الأنجـم فيـكَ الرَّونـقُ ... كـلُّ جنـبٍ فيـك نـورٌ يُـشرق

تـارةً نـورٌ بعينَـيْ قيـصرا ... تـارةً فـصٌّ يـزين الخِنجـرا

❁❁❁

قـال: فاسـمع يـا رفيقـي وافهـما ... ينـضج الـتربُ فيغـدو خاتَمـا

شـنَّ فـيما حولـه حربًـا ومـرّ ... وغـدا بـالحرب صـلبًا كـالحجر

هـيكلي مِـنْ نـضجه قـد نـوَّرا ... وبـصدري كـم شـعاعٍ أسـفرا

أنـت مِـنْ ضَـعفٍ وكيـان تنفَـق ... وبلـينٍ في قـوام تُحْـرَق

اهجُـرنْ خوفًـا وغـمًّا لا تهُـن ... وانضَجَنْ كالصَّخر والألماس كُـن

مـن أجـاد الـسعي والأخـذ معـا ... فهـو في الـدَّارين بـدرٌ طلعـا

وبحِجْـر الكعبـةِ انظـر حجـرا ... كـانَ مـنْ قبـلُ ترابًـا حُقِـرا

جـاوَزَ الطـورَ عـلاءً لا جـرم ... ورَجَـتْ تقبيلَـهُ كـلُّ الأمـم

قـوةُ الأحيـاء عـزٌّ ونجـاهْ ... والونَى والذلُّ منْ ضعفِ الحياه [1]

❁❁❁

(١) المصدر السابق (١/ ١٦٣- ١٦٤).

محاورة نهر الجنّح وجبل همالا.. ومعنى دوام حياة الأمّة في التمسُّك بسنَّتها:

جاش نهر الجنج يومًا جائلا ... في سفوح من هِمالا قائلًا:[1]
صاغك الحقُّ نجيًّا للسَّماء ... وحمى رجلَك سيرًا في العراء
قُيِّدت رجلُك عن سيرٍ فما ... هيبةٌ فيك ورأسٌ قد سما؟
إنما العيش مسيرٌ وُصِلا ... وحياةُ الموْج في أن يجفِلا
غضِبَ الطَّودُ لقول النَّهرِ ... فرمت أنفاسُه بالشررِ
قال: يا مرآة وجهي! ويلكا ... كم حوى صدري بخارًا مثلكا
إنَّ هذا السَّيْرَ فيهِ الحَيْنُ لكْ ... منْ يزُل عنْ نفسه يومًا هلكْ
بمقَامِ لكَ هلَّا تأبَه! ... أفخارٌ بالرَّدى يا أبلهُ!
يا وليد الفَلك المرتفعِ! ... صِرْتَ دونَ السَّاحل المتَّضِعِ
قد وهبتَ النَّفس بحرًا غاصبا ... وأبحت الرُّوح لصًا سالبا
كُنْ كوردٍ في رُباه عاكفِ ... لا تَرُم للريح كفَّ القاطف[2]
إنَّما العيشُ نماءٌ في المكانْ ... وبروضِ الذَّات قطفُ الأقحوانْ
في دهورٍ لم تُزحَزحْ أرجُلي ... أتُراني زائلًا عن منزلي؟

---

(١) الخطاب من نهر الجنج لجبل همالا، وخلاصة المحاورة: أن النهر يعيِّر الجبل بالعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه، وأنَّ الفناء في زواله عن مقوماته. وهذه المحاورة تصوِّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها، وأنَّ نفيها، أو الغفلة عنها يودي بها.

(٢) الريح: الرائحة. لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك.

وإلى الأفــلاك قــدِّي يــصعد ... فعــلى ســفحي الثُّريــا ترقــد
أنــت تَفنــى في خِــضَمٍّ خِــضرِمِ ... وقــلالي مــسجدٌ للأنجــمِ
وبعينــــي لاح سرُّ الفلــــكِ ... وبــسمعي طــيرانُ المَلَــكِ
وبنــارِ الجــدِّ طــولَ الــدَّهَر ... قد حوى صدري صنوفَ الجوْهرِ
«صخرٌ قلبـي ونـاري في الـصَّخر ... لــيس للــماء إلى نــاري ممــرّ»
قطـرةً إن كنـت فـاحفظ نفـسكا ... جاهـد الأمـواج واجتنب يأسـكا
وابتـغِ النُّـور وكـنْ درًّا يُـضيءْ ... ثـم كـن قُرْطًـا عـلى وجـهٍ وضيء
أو فــزد واعــلُ ســحابًا ممطــرا ... يُـشعل الـبرق ويهمـي أبحـرا [١]
يبــسط البحــرُ لجــدواك يــدا ... شـاكيًا مـنْ فاقـةٍ يرجـو النَّـدى
فهــو في فيــضك دون الموجــة ... وهـو في جـدواكَ بـادي الذِّلَّـة [٢]

مَن كانوا عُلاة الهمم وزينة الدنيا:

صِرْت يـا إكـسيرُ تُرْبًـا سـافلا ... يـا وليـدَ الحـقِّ صِرْتَ البـاطِلا
اقطــع الأكــوان حُــرًّا لا تَهُــنْ ... شــمعةً في محفــل الأحــرارِ كُــنْ
إيـه يـا غافـلُ عـن أصـل الزَّمـانْ ... كيف تدري ما خلود الحيوان [٣][٤]

---

(١) إن كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتى تصير لؤلؤة، أوْ كُنْ سحابا.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٦٥ - ١٦٧).

(٣) الحيوان: الحياة.

(٤) انظر «ديوان إقبال» (١/ ١٧٤).

□ وقال:

أيـنَ أيـامٌ بهـا سـيفُ الـدهَر صرَّفتْـه في أيادينـا القُـدَر!

قد غرسنا الدِّين في أرض القلوب وجلونا الحـقَّ من ستر الغيوبْ

ومِـنَ الـدُّنيا حلَلنـا العُقَـدا واستنار الـتُّربُ منّـا سُـجَّدا

منْ كؤوس الحقِّ صرَّفنا الرَّحيق وهَـدَمْنا حانـةَ العـصرِ العتيـقْ

كأسُـنا كانـتْ سِراجَ المحفِـل صَـدْرُنا كـانَ لقلـبِ مُـشعَلِ

إنَّ هـذا العـصرَ مِـنْ آثارنـا مـن عَجـاج ثـارَ في تسيارنا

روضـةُ الحـقِّ ارتـوت مِـنْ دمنـا عـزَّ أهـلُ الحـقِّ في الـدنيا بنـا

كـبَّر العـالَمُ مـن تكبيرنـا كعَبـاتٍ شـادَ مِـنْ تعميرنـا

«اقـرأ» الحـقُّ لنـا قـدْ علَّمـا بيـدينا رزقَـهُ قـد قسَّما [(١)]

فلـدينا عـزَّةٌ مـنْ «لا إلـه» نحـن لِلْكَـونينِ حُـرَّاسُ أبـاهْ

قَـدْ تركنـا غـمَّ أمـس وغـد ووفينـا لحبيـب أوْحَـدِ

نحـنُ ورَّاثُ هـداةٍ للبـشرْ نحـنُ عنـد الحـقِّ سرٌّ مـدَّخر

لا تـزال الـشمس تُبـدي نورنـا غيمُنـا فيـهِ بـروقٌ وسَـنا

ذاتُنـا المـرآة للحـقِّ، اعلَـم آيـةُ الحـقِّ وجـودُ المسلم [(٢)]

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ١٧٦ - ١٧٧).

عالي الهمة:

نـــائحٌ والليـــل ســـاج ســـادلُ   يهجَــعُ النـــاسُ ودمعـــي هاطـــلُ
تـــصطلي روحـــي بحـــزنٍ وألمْ   وردُ «يـا قيُّـوم» أُنْـسي في الظُّلَـمْ
أمـــلًا في الـــصدر صـيَّرتُ دمـــا   لــــيُرَى في أدمُعـــي مُنـــسجما
مـــا احتراقـــي كـــشقيقٍ أبـــدا   فيم أستجدي من الفجر النَّدى[١]
أنـــا كالـــشَّمع دمـــوعي غُـــسُلي   في ظـــلام الليـــل أذكـــى شُـــعَلي
محفـــلُ النـــاس بنـــوري يُـــشرقُ   أنـــشرُ النُّـــور ونَفـــسي أحـــرقُ
مـــا لنـــاري في الحـــشا مـــن فَـــترةٍ   مـــا بأســـبوعي فَـــراغُ الجمعـــة[٢]
إنَّ روحـــي في ســـحيق الجَـــسد   آهـــةٌ ثـــوبَ غبـــارٍ ترتـــدي[٣]
مُـــذْ بـــراني الحـــقُّ فجـــرَ الخلقـــة   زلزلـــتْ أوتـــارَ عـــودي أنَّتـــي
أنَّـــــةٌ للْعِـــشْق تُفـــشي سرّهُ   آهـــةٌ في العِـــشْق تُـــذكي جمـــرهُ
تعجـــل العـــصفَ لهيبًـــا يُحـــرقُ   وفَراشًـــا مـــنْ تـــرابٍ تخلُـــق[٤] [٥]

꧁꧂꧁꧂

(١) الشقيق: زهر أحمر بجعله الشعراء مثلاً للاحتراق. ويقول إقبال: ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له، ولماذا أستجدي الندىٰ من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر. أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندىٰ.

(٢) أيامه كلُّها عملٌ وجهدٌ، ليس فيها يوم راحة.

(٣) روحه آهة والجسد تراب يسترها كما يتردىٰ الإعصار بالغبار.

(٤) تجعل العصف – وهو الهشيم ضعيف اللهب- نارًا قوية تحرق غيرها، وتخلق من التراب فراشًا هائمًا يهفو علىٰ النار.

(٥) «ديوان إقبال» (١/ ١٨٩).

لا.. لا يا قيود الأرض.. الأرض لا تحدُّني وتعوقني:

لا تحـدُّ الأرضُ قلـبَ المسلمِ ... لا يُـرَى في تيـهِ «أنَّـى وكـمِ»[1]

لـيس للمسلم في الأرض عَطـنْ ... حـائرٌ في قلبـه كـلُّ وطـنْ[2]

حـصِّلِ القلـبَ ففـي وُسْـعَتِهِ ... ضـلَّ هـذا الكـونُ في فُـسْحته

عقـدةَ الأقـوات حـلَّ المسلمُ ... هجـر الـدارَ الإمـامُ الأعظـم[3]

أمـةٌ مـلء الـدُّنَى قـد أسَّـسا ... جعـل التَّوحيـد فيهـا أسُـسا

صـارتِ الأرضُ لـدينا مَـسْجِدا ... إذ أشـاعَ الفَـضْلَ فينـا وهـدى

ذلكَ المحمـودُ في الـذِّكرِ الحكيمْ ... ذلـكَ المحفـوظُ بـالله الـرَّحيم

تفـزعُ الأعـداءُ مـنْ هيبتـهِ ... في ارتعـادٍ مـنْ سَـنا طلعتـهِ

فلـماذا أرض أهليـهِ هجـرْ؟ ... أتـراه خـشية الأعـداء فـرّ؟

حجبَ القـصَّاصُ معنـى القـصَّةِ ... غلطـوا في فهـم معنـى الهجـرة

هجـرةٌ شَرْعُ حيـاةِ المـسلمِ ... هجـرةٌ سرُّ ثبـاتِ المُـسلم

---

(١) أي: لا يتيهِ في عالم العِلل والمقادير.

(٢) يقول إقبال في ديوان «ضرب الكليم»:

إنما الكافر حيـرا ... ن له الآفـاق تـيه

وأرىٰ المؤمن كونًا ... تاهت الآفـاق فيه

يعني: أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم، بل يسخرّها كما يشاء.

(٣) الإمام الأعظم رسولُ الله ﷺ.

إنهـا التِّـسيار نَحْـو الوُسـعةِ ولأجـل الـيمِّ تـركُ القطـرة[1]

اهجـرِ الزَّهـرة أجْـلَ الروضـة إنَّ هـذا الخـسْرَ ربـحُ الكثـرةِ

شرفُ الـشَّمْسِ مـسيرٌ مطلـقٌ فيـه مـن فـوق البرايـا تخفُـق

لا تكـنْ نهـرًا مـن الـسُّحْب يُمَـدّ وكـن البحـرَ، عُبابًـا لا يُحَـدّ

اقـصدن تـسخير كـلِّ العـالَم لـتُرى لـسلطانَ أهـلِ العـالَمَ

لا يقيِّـدُكَ مُقـامٌ في الـورى وكـنِ الحـوتَ يَـسيحُ الأبحُـرا

كـلُّ مـن حُـرِّر مِـنْ ذُلِّ الجهـات فلـكٌ يُزهِـرْ مـنْ كـلِّ الجهـاتْ

تـركَ الـوردَ شـذاهُ فـسرى في فـسيح المـرْجِ عِطْـرًا نَـشَرا

يـا أسـيرًا قـد ثـوى في روضـةِ عنـدليبًا هـائمًا في وردةِ!

سـيِّرَنْ نفـسك حـرًّا كالـصَّبا ثـم عـانق كـلَّ أزهـار الرُّبَـى

فـانتظِمْ في سـلكه كالـدُّررِ أوْ غبـارًا في الرِّيـاح انتـشِرِ[2]

إنما الحياة هكذا: علو الهمّة والعيش بين الخطر:

□ قال إقبال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سرُّ هـذا الأمـر يـا ذا البـصر: «الحيـاةُ العـيشُ بـين الخَطـرِ»

---

(١) في القرآن الكريم: ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾[النساء: ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٢١٧- ٢١٨).

يتحــــدَّاك برضـــوى العاليـــه في امتحــــانٍ لِقِـــواكَ العاتيـــه

ويناديـــك أن اقـــصمْ ظهرهـــا وبحـدِّ الـسيف فاصـهرْ صـخرها

لـيس كـفءَ الليـث في صـولته حَمَـــلٌ يرجـــفُ في ذلَّتـــه

إنْ حكـى الـصَّعوةَ صـقرٌ كـاسِرُ فهْـــوَ كالـــصَّعوة واهٍ خـــائِرَ

كتـــبَ الـــشارعُ ربُّ الحكمـــة لـكَ هـذا اللـوحَ، لـوحَ القُـدْرَة

يَـــشْحذُ العـــزم بنـــارِ العمـــل ويرقِّيـــكَ لأعـــلى مَنْـــزِل

وإذا تَلْغَـــبُ يعطيـــك القُـــوى ويـــربِّي منـك طـودًا مـا خَـوى

إنَّ ديـــن المـــصطفى ديـــنُ الحيـــاه شَرْعُـــه للنَّـــاس قـــانون الحيـــاه

إنْ تكـــنْ أرضًـــا يـــصيِّرْكَ الـــسَّماءْ ويربِّيـــك كـــما الحـــقُّ يـــشاءْ

يـصقل المـرآةَ مِـنْ صـخرٍ شـديد وينقِّـي الـرِّينَ مـنْ قلـبِ الحديـدْ

ضـيَّع القـومُ شـعارَ المـصطفى ضـــيَّعوا رَمـــز بقـــاءٍ عُرِفـــا

ذلـك الغـصن العـسِيُّ المعـتلي مُـسلمُ الـــصَّحراء ربُّ الجَمَـــل

الـذي البطحـاء أزكـتْ غَرْسَـهُ وريـــاحُ البيـــد ربَّـــت نفـــسَه

أذْبَلتْـــهُ اليـــومَ ريـــحُ العَجَـــم صـــيَّرته النـــايَ روحُ العَجَـــم

قاتـــلُ الآســـاد ذبـــحَ الغـــنم وطءُ نمـــل مـــسَّه بـــالألم

مـــن أذابَ الـــصَّخرَ مـــن تكبـــيره راعـــه البلبـــل في تـــصفيره

مـن عـلا الطـودَ سريعًـا مُـصعِدا غـــلَّ بـــالتُّكلان رجـــلًا ويـــدا

من بـرى الأعنـاق ضربًـا عَـضبُه يَلْـــدِمُ الـــصَّدر ويَـــدمَى قلبُـــه

مُـــوقظ الآفـــاق مِـــنْ خطَواتـــهِ قُيِّـــدت رجـــلاه في خَلْواتـــه

مـنْ أطـاع النـاسُ طـرًّا أمـرَه　　واجتــدى دارا وكــسرى بـرَّه
رضي القُنــع وأكــدَى جِــدُّه　　وارتــضى الكِدْيــةَ عِــزًّا جَــدُّه

❁❁❁

كمـاتِ الفـردِ تفنـى الأمـمُ　　ولهــا يومًــا قــضاءٌ يُحـتَمُ
أمــة الإســلام تــأبى أجــلا　　أصلها الميثاق في ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (١)
لا تخـاف المـوتَ هـذي الأمَّـةُ　　﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ لــديها حجـةُ (٢)
دامَ ذكــرٌ مــا أقــام الــذَّاكرُ　　بــدوام الــذِّكر دامَ الــذَّاكر (٣)
ذلــك المــصباح أنَّــى يُطفَــأ؟　　قال ربي عالمًـا: ﴿أَن يُطْفِـُٔواْ﴾ (٤)
أمَّــة الحــقِّ إلى الحــقِّ تُنيــبْ　　أمَّــةٌ يَعْــشَقُها أهــلُ القلــوب (٥)
مُصْلتٌ بالحقِّ ذا السَّيفُ الـصَّقيلْ　　مُصْلتٌ من غمد آمـال الخليـل (٦)

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] يعني: أنها قائمة على عقيدةٍ أزليةٍ عامةٍ خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة.

(٢) إشارة إلى الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].

(٣) المعنى: إن كان الذكر محفوظًا فلا بدَّ أن يدوم الذَّاكر، فلا ذكر بدون ذاكر.

(٤) الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

(٥) إلى الحق تنيب: الحق هنا الله تعالى.

(٦) إبراهيم الخليل: كان يأمل أن تخرج من ذريته أمةٌ موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة.

مـا سـوى الحـقِّ محـاهُ برقُـه ليعيـد الحـقَّ حيًّـا نطقُـه

نحـنُ للتَّوحيـد أقـوى حجـةٍ للكتـابِ اختارنـا والحكمـةِ [1]

روضـنا كـان لهيـبُ التـتَر حَلْيَنـا كـان نِثـارُ الـشَّرر [2]

فلإبـراهيم فينـا فطـرةٌ وإلى المـولى لـدينا نـسبةُ

مـن لهيـب قـد جنينـا زهَـرا نـار نمـرودٍ رَدَدْنـا كـوثرا

كـلُّ نـارٍ يوقـدُ الـدَّهرُ لنـا زهـراتٌ حـين تـأتي روضَـنا

ذهـب الـروم وفُـضَّ الموكـبُ شرقُهـا أقـوى وأقـوى المغـربُ

كـأسُ ساسـان مـن الغـمِّ دَمُ حـانُ يونـان خـرابٌ مُظلـم [3]

عابـدَ الواحـدِ! وحِّـد واهجـرن كـلَّ تفريـقِ وللحـقِّ ارجعَـنْ

أيُّهـا المُغفـل معنـى الكلـم أثْبـتَنْ في القلـب ألفـاظَ الفَـم

قـوّةَ الإيـمان زِدْ بالعمـلِ مـات إيـمانٌ إذا لم يَعْمـلِ [4]

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١].

(٢) يعني: كانت نار التتر علينا بردًا وسلامًا، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم.

(٣) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي.

(٤) «ديوان إقبال» (١/ ٢٣٦- ٢٣٨).

عالي الهمة يقنع باليسير ولا يمد اليد إلى العير:

□ قال رَحِمَهُ اللهُ:

أشعِرَنَّ القلبَ «الله الصمد» … تَخَلَّصَنْ مِنْ قيد أسباب وحدّ

ليسَ عبدُ الله عبدَ السَّببْ … ما الحياةُ الحقُّ دورَ اللَّولب [1]

ليسَ غيرَ الله يرجو المسلمُ … وهْو للنَّاس جميعًا سَلَمُ

لا تبُثَّنَّ شَكاةً أحدا … لا تمُدَّنَّ إلى الخَلق يدا

فيمَ للأجواد حملُ المِنَنِ … أنت، منْ لا ونعَم في حَزنِ

لا ترُم ورق لئيم يُنغصُ … يوسفٌ أنت، فأنَّى ترخُصُ؟

إنْ تكن نملًا وكنتَ المقْعَدا … لا تؤمِّل منْ سليمان جَدَى

خفِّفِ الزاد، طريقٌ وعِرُ … عشْ ومتْ حرًّا. عداك الغَرَرُ

اجعلن «أقلِلْ من الدُّنيا» الشِّعارْ … و«تعش حرًّا» بها كلَّ الفخار

وكن الإكسيرَ لا التُّربَ بها … معطيًا لا سائلًا. في حبِّها [2]

❊❊❊

أنت قد غرَّك صبحٌ كاذبُ … أنت عن نَفْسِك حقًّا ذاهب

أنت شمسٌ نَفسَك اعرِف كلَّ حين … لا تُضئْها منْ نجوم الآخرين

إنَّ في قلبك نفسًا من سواك … باعَتِ الآكسيرَ بالتُّرب يداك

---

(١) إن أخْلَصَ الإنسان لله، وتوكَّل عليه لا يقيده ما يقيد الناس من أسباب، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادةُ الإنسان وعزيمته.

(٢) الضمير يرجع إلى الدنيا.

حَـيٌّ فَـرْدٌ نفسَه قـد عَرفـا — وقبيـل عـن سـواه صـدفا
عـن طريـق المصطفى لا تـذهبَنْ — واتـرك الأربـاب، والله اعبُـدَن[1]

عالي الهمة سما فوق السماوات العُلَى:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قـد سـما المسلم أعلَى مَنْ سَما — لـيس يـرضى بمُسامٍ في السَّما
وِردُه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ في المأزِق — ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ تـاجُ المَفرِق
حمـلَ الكـونين طـرًّا ظَهـرُه — وحـوى بـرًّا وبحـرًا صـدرُه
أذْنُـه للرَّعـد إمَّـا جَلجـلا — صـدرُه لِلْـبَرَق إمَّـا نـزلا
قاتِـلُ الـزُّور، وللحـقِّ وزَرْ — أمـرُه المعيـار في خـيرٍ وشرّ
جمـرُه كـلُّ لهيـبٍ في حـشاه — جـوهرٌ فيـه كـمالٌ للحيـاه
لـيس في ضوضـاء هـذي الأمـم — نغمـةٌ إلا أذانَ المُـسلمِ
هـو في العفـو وفي البـذل عظـيمْ — وهـو حـين القَهـر ذو طبـعٍ كـريم
لُطفُـه في الحَفـلِ جـبرُ المنكـسِرْ — قهـرُه في الحـرب صـهرٌ للحجَـر
هـو في الـرَّوض صـفيرُ البُلبـلِ — وهو في البِيـد انقـضاض الأجـدل
قلبـه تحـت سَـماءٍ لا يقـرّ — هـو فـوق الزُّهْـرِ مـا إن يـستقرّ
طـائرٌ ينقُـر نجـمَ الحُبـكِ — طـائرًا فـيما وراء الفَلَـكِ

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١).

أنتَ، يا منْ لم يَطِرْ منك جَنـاحْ! دودةٌ في ظلمـةِ الـتُّرب تُـراح
مـستكينٌ تـشتكي جـور الزَّمـانْ قد أصبتَ الذُّلَّ من هَجر القُـران (١)
قد هَبَطْتَ الأرضَ طُهرًا كالنَّدى بالكتـاب الحـيِّ أمـسكت يـدا
فإلام العـيشُ في الـتُّرب؟ ارحـلا اصعدَنْ فوق الـسمواتِ العُلَى (٢)

كلمات نيّرات:

عليـك الـسَّيْرَ لا ترغـب مَقـيلا وسرْ كالـشَّمس لا تَرقُـبْ دلـيلا
وهَــبْ للآخــرينَ متــاعَ عقــل ونــارَ العِـشْق فاحْفَظْهـا بَـديلا

꧁꧂

يرى قلبُ الـشُّجاع الليـث وهمًـا وفي قلــب الجبــان الظَّبــي بَــبْرُ
فـإن تجـبُنْ رأيـت المـوجَ وحـشًا وإنْ تــشجُعْ فــإنَّ البَحْــرَ بــرُّ

꧁꧂

تقــول: بطيرنــا عَلِقــتْ قيــودُ وفي شَركِ الجــسوم لهــا همــودُ
ومعنـى الـرُّوح بالأجـسام يعلـو مِــسنُّ ســيوفنا هــذي الغُمــودُ

꧁꧂

طريقُــك فانحتنــه في كفــاح طريــقُ ســواك مــسلكُه عــذابُ
فــإنْ أبــدعت في عمــل فــريّ لــك الحــسنى حبيبــي والثــوابُ

꧁꧂

(١) القُران: والقُرآن.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٢٤٣- ٢٤٤).

دليـلُ القلـب لا يـرضى نـزولًا ... ولا يُرضـيه مـاؤك والـتُّرابُ
فـلا تحـسبه في جـسدٍ مقـيمًا ... فـلا يـرضى بـشطٍّ ذا العُبـاب

إلام تعـيش في رثِّ الإهـاب؟ ... إلام تعـيش نمـلًا في تـرابِ؟
فَطِـرْ كالـصَّقر معتزمًـا وحلِّـقْ ... إلامَ أسـيرُ حـبٍّ في اليَبَـابِ؟

نصيحة صقر لفرخه:

تعلَّـم بنـيَّ بـأنَّ الـصُّقورْ ... لهـا قلـبُ ليـثٍ وجـسمٌ صـغير
فكنْ مُحْكَم الـرأي شـهمًا جـسورا ... علـيَّ الـسجايا أبيًّـا غيـورا
بُغـاث الطيـور اهجرنهـا بعيـدا ... ودعهـا إذا لم تُـردْ أن تـصيدا
فتلـكَ الرعاديـدُ نـسلُ اللئـام ... تـدسُّ مناقيرهـا في الرَّغـامْ
أرى البـازَ صـيدًا لمـا اصـطاده ... إذا قلَّـد الـصيد مـا اعتـاده [1]
فكـم باشـقٍ قـد أتـاه النَّـوى ... بـصحبةِ لقَّـاطِ حـبٍّ هـوى
فنفسكَ فـاحفظْ وعِـشْ في جـذل ... جريئًـا متينًـا قـويَّ العـضل
ودعْ للـدراريج [2] لـينَ الجَـسَدْ ... وكـن مخلبًـا كالمُـدَى أوْ أَحَـدّ
متـاعُ الحيـاة، تعلَّـم، جهـادُ ... وصَـبْرٌ عـلى محنـةٍ واجتهـادُ
نقـول لفـرخ عقـاب عتيـق ... «بريـق الـدماءِ يفـوقُ العقيـق»

---

(١) يعني: إنْ قلَّد الصقر الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيدًا لها مغلوبًا على أمره.

(٢) الدراريج: جمع دراج وهو طائرٌ معروف.

ولا تبـغ سِرْبًـا كَسِرْبِ الغـنمْ توحَّـدْ كقومِـك منـذ القِـدَمْ
سـمعتُ وصاة الصُّقور العتاق بـأَلَّا نقـيم بظـلٍّ وسـاق
فلـيس لنـا في ريـاض مجـال فـسيحُ الفيـافي لنـا والجبـالْ
ولقْطـك حبًّـا بـأرض خطـاء حبانـا الإلـه عنـان السـماء
فأمَّا خطيْ في التراب النجيب [(١)] فـأشرفُ منـه حِمـامٌ مُريـب
فـإن بـساط البـزاة الحجـرْ يحـدّ مخـالبهنَّ الـصَّخرْ
نـساك الأوابـد زرق العيـون كأنـك عنقـاء جـوٍّ متـين
أصـيلٌ أبِيٌّ بيـوم الخَطَـرْ كفيـل بإنـسانِ عـين النمَّـرْ
جناحُـك مـن سَـطَواتِ الـبروق من الشهب [(٢)] فيك كريم العروق
فَطِرْ في السماوات لا تخش خطبا وكـلْ مـا أصـبت يبسًا ورَطْبًـا
ولا تَقْـبَلَنْ طعمـةً مـن أَحَـدْ وكنْ راشِـدًا واستمع للرَّشَـدْ [(٣)]

حياتَك فابغِ في الخطر الجليل:

غــزالٌ بـثَّ شـكواه غَـزَالًا فَقَـال سأقـصُدُ البلَـدَ الحرامَـا
أرى الـصَّيَّاد حـولي كـلَّ حـينٍ فـلا أسـتطيعُ في أرض مُقامـا
أبـدِّل خيفـةَ الـصَّيَّاد أمْنـا وأنفـي الغـمَّ عـن قلبـي المعنَّـى
أجـابَ رفيقُـه أن يـا خَلـيلي حَياتَـكَ فـابغ في الخَطَـرِ الجَليـل

---

(١) يعني: الصقر ونحوه.
(٢) الشهب: أي البيض، وفيها تورية بشهب السماء.
(٣) «ديوان إقبال» (١/ ٢٨٥- ٢٨٦).

ونفْـسَكَ فَاشْـحذنْ في كـلِّ آنِ … وعش أمضَى مـن الـسيف اليَماني
ففـي الأخطـار لِلْهِمَـم اختبـارُ … لأرواح وأجـسادٍ عيـارُ [1]

فِطرتي لا ترتضي دَعة المنازل:

مـاذا أقـولُ وفطـرتي … لا تَرتـضي دَعـة المنـازلْ
قلبـي عـلى قلـقِ كـما … تهفو الصَّبا حـولَ الخمائـلْ
فـإذا نظـرتُ إلى جميـل … رائـع حلـوِ الـشَّمائلْ
خَفَـقَ الفـؤادُ إلى الَّـذي … يعلـوه حسنًا في المحافـلْ
فمنَ الـشرار إلى النُّجـوم … إلى الـشُّموس رقـيّ آمـلْ
إنِّي ليهلكنـي القـرارُ فـما … أعـوجُ عـلى المراحـلْ
وإذا شربـتُ مـنَ الرَّبيـع … الكاس تسري في المفاصلْ
أشـدو بـشعرِ آخـرِ … وربيعـي الآتي أغـازلْ
طلبـي النهايـةُ في الَّـذي … لا ينتهـي فيـه المُـسائلْ
لا صـابرٌ نَظَـري ولا … قلبي عن الآمالِ غافـلْ [2]

شررًا كُنَّا:

أمَّـة كانـت ومـن حكمتهـا … نحـنُ آثـارٌ عـلى مـرِّ العُـصورْ
قـد عرفنـا سرَّ تقـديرِ مـضى … فمـضينا نقتفـي سرَّ الـدهورْ
شررًا كنـا، أجـدنا نظـرًا … فـإذا شـمسٌ عـلى الكـونِ تـسيرْ

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٢٩٥- ٢٩٦).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٩٧).

صرصر البيـــداءِ في فطرتنـــا أذبلتْ ريحُ الصَّبا فينا الزُّهورْ
رُبَّ صيدٍ قد أخذنا وثبةً دون أشراكٍ كما انقضَّت صقور
كلما أمكَنَ طرفٌ فاركضنْ كم أماتَ العزمَ تدبيرُ الأمور[١]

لنا غايةٌ من الشمس أعلى:

ولنا غايةٌ من الشمس أعلى إنها الشمس صُوَّة الرَّكْتانِ[٢]
إيه يا قطوةً عن النفس تاهتْ تطلبين المحالَ في الأكْوانِ
إنَّ عارًا معيشة البحر إن لم تطلعني منه درَّةً ذات شان
يا جهولًا بقدر نفسك لولا أنت كان العتيق كالصَّوان[٣] [٤]

يا لها من أمنيات:

مُنيتي أن يتجلَّى ذلك البدرُ التَّمامُ
فيدي تُمْسكُ صدري وبعينيَّ اقتحامُ
ويقول الحسن: صبحي ليس يغشاه ظلام
فيقولُ الحبُّ: وجدي ليس يخبو والهيام
ليس من يومي وأمسي وغدي فيَّ زمام

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٠٢).

(٢) الصُّوَّة: أحجار تجعل علامة علىٰ الطريق.

(٣) يعني أن الإنسان جهل قدر نفسه وقدَّر أشياء ليس لها قيمة إلا بتقديره.

(٤) «ديوان إقبال» (١/ ٣١٠- ٣١١).

لـــيس لي نَجْـــدٌ وغـــورٌ ... لـــيس يحـــويني مقـــام
رِقَّـــة الأسرار أبغـــي ... وكؤوسًـــا لا تـــرام
ولتـــسنيم الجنـــان ... طهـــر حـــورٍ في الخيـــام
بـــل ونظـــرٌ للـــودودِ ... إذ يقـــولُ لي ســـلام
يـــا لإنعـــام الحبيـــب!! ... حـــين ينظـــر.. والكـــلام

□ ولله در القائل:

نحنُ تربٌ، وكـالنجوم سـفارا ... في أعـالي الـسماء نبغـي قـرارا
قـل لأهـل الـسَّماءِ: إنَّ ترابًـا ... نـال بالحـبِّ في الـسماء مطـارًا
نحن في الحبِّ زهـرةٌ في نـسيم ... وبكـدِّ الحيـاة نقـدحُ نـارا

لا يستويان:

أيـنَ مِـنْ يفـق الـشَّواهيـ ... ـــن جنـاحُ العنـدليب
أينَ منْ يلقـطُ مِـنْ حـب ... عـــلى الأرضِ تريـــب
مـــن فتـــى يلقـــط عنقـــو ... د الثُّريـــا لا يَخيْـــب
أينَ مـنْ يـسري بـروض ... كنـــسيم في هبـــوب
مَنْ بصير في ضمير الزهـ ... ـــر للـــسرِّ يـــصيب
أيـن فـوق الأرض ظـنٌّ ... ســارًا أو شـكٌّ مريـب
من طموح جـاوز الأفـلا ... ك لِلْمَـسْرى الرَّحيـب
حبَّــذا عقــلٌ فــسيحٌ ... قــد أحــاطَ العــالَمين
نـــورُ أمـــلاكٍ ونـــا ... ر الأنـس فيـه دونَ مـين

نحنُ مِنْ خلوةِ عِشقٍ ... قد برزنا بالسَّجايا
فجعلنا موطئ الأقدا ... م في الأرض مَرايا
فانظرنْ همَّتنا كيـ ... ـف لعبنا بالعطايا
قد أضعنا الكونَ جهرًا ... حينَ حزناهُ خفايا
قدْ نزلنا شطَّ نهرٍ ... نبصرُ الموج سَرايا
تبصرُ الأعينُ سطرًا ... مِنْ غُدُوٍّ وعَشايا
شعلةً كنَّا جميعًا ... وانتثرنا كالشَّررْ
أهلَ شوقٍ وحنينٍ ... ورجاءٍ ونَظَرْ [(١)]

□ ولله درَّه حين يقول:

رأيت الحب يأبى كُلَّ وغدٍ ... كميتِ الطير تأباه الصقور

□ وحين يقول:

قطوفَ الورد! لا تجزعْ لشوكٍ ... كذاك الشَّوكُ من نَفَس الرَّبيع

يا لُبينى أوقدي طال المَدى:

يا لُبينى أوقدي، طالَ المدى ... أوقدي علَّ على النَّار هدى [(٢)]
أوقدي يا لبُن قد حارَ الدَّليل ... أوقدي النَّارَ لأبناءِ السبيل
ارفعي النَّار وأذكي جمرها ... علَّ هذا الركبَ يعشو شطرها

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٢٦- ٣٢٧).

(٢) إشارة إلى الآية في قصة موسى عليه السلام: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه].

شرِّدي هـذا الظـلامَ الجـاثما | أرشـدي هـذا الفـراشَ الهـائما
حبَّـذا النـارُ بليـل توقـدُ | حبَّـذا المـؤنسُ هـذا الموقـدُ؟
حبَّـذا عنـدك هـذا النـزلُ | لـو حوانـا في سـفارٍ منـزل
ما لـذا المنزلِ قـد سار الفريـق | إنَّـما النِّـيران أعـلامُ الطَّريـق
قـد ترحَّلنـا مـن الفـجِّ العميـق | لا نبـالي بقريـبٍ أوْ سـحيق
رنَّ في آفاقنـا هـذا النِّـداء | فأممنـا البيـت يحـدونا الرَّجـاء[1]
قـد غنينـا عـن مبيـتٍ ومقيـلْ | وعـن الأمـواه والظـلِّ الظَّليـل
وعـن الرَّغبـة والخـوفِ سُـوى | خُلـع النعلان في وادي طـوى[2]
نحـن لا نـرضى بنـار الغَسَق | نحـن لا نـرضى بنـور الـشَّفَق
نحن لا نرضى بنجم الـصُّبْح لاح | لا ولا نـرضى تباشـيرَ الـصَّباحْ
نحـن لا نـرضى نجومًـا لامعـه | إنـما نبغـى شموسًـا طالعـه
قـد رحلنـا بـالجوى والحُـرقِ | وغنينـا عـن رسـيم الأينـق
أيـن منـا طـائراتٌ سـبَّق | جَمَـعَ الغَـرْبُ لهـا والمـشرقُ
نحـن ركـبٌ في جـواه مُوضـع | لم يَـسَعْهُ في جـواه موضـعُ
كـلُّ حُـرٍّ ضـاق عنـه المـوطنُ | وانطـوى دون منـاه الـزَّمنُ

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج].

(٢) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه].

كـلُّ طيَّـارٍ عـلى مـتن الفكـر   وعـلى مـتنِ هيـام لا يقـر
طـائرٌ منـه يغـارُ المَلَـك   طـائرٌ مـن تحتـه ذا الفلـكُ
بـارقٌ في اللَّـوْح لا ينطفـئُ   كـلُّ غايـاتٍ لديـه مبـدأُ
زوِّينـا بهيـام ووجيـب   زوِّدي يـا لُبنَ مِـنْ هـذا اللهيـب

꧁꧂

جـالَ في الظلـماءِ نـورٌ مـن نغَـم   مُزِّقـتْ منـه ديـاجيرُ الظُّلـم
أشـعاعٌ فيـه صـوتُ صـائح   أمْ كـلامٌ منـه نـورٌ لائـح؟
أذنَ الرَّكـب لهـذا المنـشدِ   أطربَ الناشـدَ صـوتُ المنشد [1]
سـال في القلـب مـسيلَ المطـر   ينبـتُ الـرُّوح بـسهب مقفـرِ
أو خريـرِ المـاء مـن نبـع زُلال   بـشَّر الغـارقَ في بحـر الرِّمـال
رَنَّ في نفـسي رنـينُ الجـرس   صـاح في أذني فقيـدٌ مـبلس
طـوتِ البيـداءُ عنـه الـسَّابلهْ   وهـداهُ الـصَّوْتُ شَـطْرَ القافلـه
سـبقَ القلـبُ إليـه الأذنـا   كـبلالٍ لـصلاةٍ أذَّنـا
دارَ قلبـي شـطرَ هـذا المطـربِ   دورةَ الإبـرة شـطر القُطْـبِ
«غنـي يـا منيتـي! لحنَ النُّشور   ابركـي يـا نـاقتي! تـمَّ الـسُّرور
عُـدْتَ يـا عيـدي إلينـا مرحبـا   نِعْمَ مـا روَّحـتَ يـا ريحَ الـصَّبا»

꧁꧂

---

(١) المنشد في الشطر الأول: منشد الشعر، وفي الثاني: الذي يدلُّ على الضَّالة، الناشد من ينشدها.

حبذا الصَّوْتُ فَمَنْ هـذا البشير؟ ومـن الهـاتفُ بالقَلْـبِ الكـسير؟
وَمَـنِ المُـسْعِدُ في هـذي الهمـوم؟ ومَـن البـارقُ في هـذي الغيـوم؟
ومـنِ الهـابط في نـورِ الـسَّما هاديًـا في الأرض جيلًا مظلـما؟
ومـن الهـادي إلى أرض الحبيـب يعرف النهج وقد حـارَ اللَّبيـب؟
ومـنِ الـسَّائقُ شَـطْرَ الحَـرَم وإلى الأصـنام سَـيْرَ الأمـم؟
ومـن القـارئ في بيـت الـصنم سورة الإخـلاص في هـذا الـنغم؟
وَمَـنِ الحـرُّ الـذي قـد حطـما مـن قيـود الأسرِ هـذا الأدهمـا؟
وَمَـنِ الآبي عـلى كـلِّ القيـود وَمَـنِ القـاطِعُ أغـلالَ العبيـد؟
ومَـنِ الباعـثُ في ميـت الأمـم ثـورةَ العـزَّةِ مـن هـذي الهِمـم؟
لاحَ الغُـرَّة في هـذا الـسَّواد بـصَّ كـالجمرة في هـذا الرَّمـاد
جـرف النَّـاس أتيٌّ مزيـد ضـلَّ فيـهِ المقتـدي والمرْشِـدُ
عـارض المـوج عـلى أغـماره وطـوى اللُّـجَّ عـلى تيَّـاره
وطغـى اللُّـجَّ عليـه والـتطم فرسًـا كالـصَّخر في هـذا الخِضَم
سـبح اللُّـجُّ وبالـشطِّ اسـتقر داعيًـا والنـاسُ غرقـى في النَّهـر
يجـرفُ التيَّـار جـسمًا جامـدا تَقْـذِفُ اللُّجَّـةُ قلبًـا خامـدا
إنَّ عـزم الحـرِّ بحـرٌ مُزْبـدُ جـائشٌ في الـدَّهر لا يَتَّئِـدُ
هـذه الأقـدارُ في تيـسارها هِمـمُ الأحـرارِ في أسـفارها [1]
ومـن الـشَّاعر يُـذكي القافيـه فهـي نـورٌ وهـي نـارٌ حاميـه؟

---

(١) هذه: مبتدأ، وهمم: خبر.

تَقْشعرُّ الأرضُ من أوزانه ويهيمُ النَّجْمُ من ألحانه
هو بالأشعار بحرٌ فائض وهو للأزمان قلبٌ نابض
حدَّثته الأرض عن أخبارها وحَبَتْهُ الزُّهر من أسرارها
هو بالأمس خبيرٌ بِغَدِ وهو اليومَ نجيُّ الأبد
كَشَفَ اللهُ عن الغيبِ له فلسانُ الغيب يُمْلي قوله
عَرَفَ الشَّرقَ وراد المغربا فانجلى السِّرُّ له ما كُذبا
فرأى العلمَ سبيلًا للرَّدى إذ رأى القلب خليًّا مِنْ هدى
صوتُ هَمَّام على شطِّ المزار أسمعَ اليقظان في هذي الدِّيار [1]

ﮪﮫﮬﮭﮪﮫ

همم الأحرار تَحيي الرِّحما:

فطرةُ الله التي أوْدَعها كلُّ نفسٍ خابَ مَنْ ضَيَّعها
إنها سرُّ الحياة الخالدة دونها كلُّ حياةٍ هامدة
إنَّها التيَّارُ مثلَ الكَهْرباء إن يُعطَّلْ لمحةً كان الفناء
إنَّما العيشُ جهادٌ لا يَقرّ وركودُ الحيِّ موت مستمرّ
من يضيء ذا السرَّ في أعماقه ضاقتِ الأفلاكُ عن آفاقه
وتعالى عن حدودِ الأزمنة وتجافى عن قيود الأمكنة
شُعلٌ في قوله تضطرم وطما في الموت روح العمل

(١) انظر «اللمعات» لعبد الوهاب عزّام بتصرف.. «ديوان إقبال» (١/ ٣٤٦- ٣٤٩).

مُلطعٌ في اليأسِ صُبْحَ الأملِ | نافخٌ في الموت روح العمل
أرأيت الغيث في أرضٍ موات | منبتًا فهيا أفانين النَّبات
هِممُ الأحرارِ تحيي الرِّمَمَا | نفخةُ الأبرار تحيي الأمما
لا يُصدُّ الحرُّ عمَّا يأمل | أو يحدُّ البزُّ فيما يفعل
هو بالله العليِّ اتصلا | جلَّ ربي عن حدودٍ وعلا
منْ يُضيء في قلبه إيمانُه | وينرْ في سبله وجدانُه
فهو بالله عليٌّ وقويّ | وهو بالله غنيٌّ ووليّ
جاهد واللهُ في تيسيره | تحسبُ الأقدارَ في تقديره
قائمٌ بالحقِّ بين البشر | ما له في باطلٍ منْ وَطَر
يُمْسِك الدُّنيا ولا تُمْسِكُه | يملك الأرضَ ولا تملكه
وترى الدُّنيا انطوت في كبه | ليس منها ذرةٌ في قلبه
إنَّه القانون بالله سرى | عادلًا في حكمه بين الورى
يسعُ النَّاسَ جميعًا همُّه | في سبيل الله ماضٍ عزمُه
جاهدٌ في الخيرِ لا يتَّئد | عزمُه في صَدْرِه يتَّقد
وفقيرٌ وغناه لا يُحَدّ | فقره استغناؤه عنْ كلِّ يد
هو بالله وفي الله غنيّ | ضاقَ عن هذا الغنى كلُّ ثري

صغار الهمم:

إنَّ في النـاس قلوبًـا جامـده ... جذوةُ الإقـدامِ فيهـا خامـده

همُّهـا مـا يبتغيـه الجسـدُ ... كـلُّ مـا تهـوى طعـامٌ وددُ

حـدَّدَتْ آرابُهـا آفاقَهـا ... فحكتْ في ضِيقها أخلاقَهـا

لا تبـالي حـين تبغـي أربـا ... عُمِـرَ الكـونُ بـهِ أم خَرِبـا

إنَّـما قانونهـا أهواؤهـا ... سُـخِّرت في نفعهـا آراؤهـا

وتـرى أهواءهـا تغلبُهـا ... كـلَّ حـينٍ في هـوىً يجذبُها

وإلى الأرض تراهـا مُخْلِـدَه ... لا تُرى نحو المعـالي مُصْعده

إنَّـما آفاقُهـا هـذا البـدن ... إنَّـما مَبْرَكهـا هـذا العَطَـن

إنَّـما أحياؤهـا كـالرِّمم ... خامداتِ العَزْم موتى الهِمَم

صُنَّاع الحياة المسلمون نعم العابدون:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنَّـما العـالَمُ طُـرًّا مَعْبـدُ ... كلُّ مَـنْ أحسنَ، فيه يَعْبُد

كـلُّ مَـنْ أدلى بقـولٍ طيِّـبِ ... ينبتُ الخيرَ كغيث صيِّب

كلُّ منْ أحسن يومًـا عمـلا ... كـلُّ مـن أحيـا مواتًـا همـلا

كلُّ منْ في أرضـه قـد زرعـا ... ليقيتَ النَّاس والعُجْم معـا

كلُّ منْ يغرسُ مخضرَّ الشَّجر ... فيـه للإنسـان ظـلٌّ وثمـر

كل منْ يَنْبِطُ بثـرًا في السـبيل ... تنفعُ الظمآن منْ حرِّ الغليـل

كــلّ مــنْ يبنـي بنــاءً حـسنا — كــلُّ مــنْ صــنعه قــد أتقنــا
كلُّ مَنْ أحدث علـمًا للبشر — ينفع الناس ولم يقصد لـشر
كلُّ مَنْ أحدث فكـرًا مُحكـما — يبتغـي للنـاس خـيرًا عمـما
كــلُّ مَــنْ جــدَّ وإنْ لم يجـد — لم يــضع وقتًــا بلهــوٍ وددِ
كــل مــن أثــر فيهــا أثــرًا — خالدًا للخير ما بـين الـورى
كلُّ مـنْ في دهـره قـد أجمـلا — فكــرةً أو قولــةً أو عمــلا
كلّهُــم لله نِعْــمَ العابــدُ — كلُّهـم للخـيرِ نعْـمَ القاصـدُ
فاصطنع للخـيرِ فكـرًا ويـدا — ولسانًا وابغ في الخـير يـدا [(١)]

لا رهبانية في الإسلام:

لـيس منـا مـن ثـوى في صـومعه — يحـبسُ الأعـمال والفكـر معـه
ضــاق نفـسًا عــن مجـالٍ وسـعا — فثــوى في ضــيقهِ قــد خَنَعــا
لــيس شـيئًا أنْ تُـرَى معتــزلا — عابــدًا تخـشى البرايـا وجِـلا
إنَّـما العابـد مـنْ خــاضَ الحيـاة — موضــحًا فيــه ســبيلًا للنَّجــاة
آخــذًا بالــذْلِ مــا عنـه حــول — ذاكــرًا مــولاه في كــلِّ عمــل
إنَّــه بــالحق موصــولٌ ومَــنْ — يتَّــصلْ بــالحقِّ لا يخْـشَ الفـتن
ثــورةٌ مــضمرةٌ في حلمــه — إنْ يفكِّــرْ ظــالمٌ في ظلمــه
أرأيــت الــصَّقْرَ في مــتنِ الرِّيــاح — يطلــبُ الــرزق بعــزم وجنــاح
طــائرًا في الجــو يــسمو عازمــا — لا يُــرى حــول الــدَّنايا حــائما

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٠- ٣٥١).

يأكلُ الجوع ولا يرضى الجيف ... لو يراه الجوعُ يومًا ما أسفّ
فإذا الجدُّ رماه في الشَّرك ... لم يطقْ صبرًا عليه فهلك
ليس يحوي الحد يومًا سبك ... فأسار الحدِّ فيه مهلك
يا فتى هذا الجهادُ الأكبر ... عزماتُ الحرِّ فيه تُخبر
قلَّ في النَّاس عليه صابرُ ... ليس إلا الحرُّ فيه ظافر
يا أسير الوَهْم أقدم لا تُبَلْ ... وامضِ فيمن صحَّ عزمًا واتَّكل [1]

عُلوُّ الهمة في التوكل:

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَنْ يَنَمْ عن سعيه لا يتَّكل ... إنَّما التكلانُ سعيٌ متَّصل
مُقْدمٌ في أمره المتَّكِلُ ... واثقٌ بالله فيما يأمُلُ
عازمٌ ماضٍ على خيرِ سنن ... لا يبالي بعِقاب أو محَن [2]
أرأيتَ الطَّير في نورِ الصَّباح ... تطلب الرزق بعزم وجناح
أنَّها تخرجُ في كفِّ القدر ... مقدماتٍ لا تبالي بالخطر
طالباتِ الرزق في كلِّ رجا ... تملأ الجوَّ وثوقًا ورَجا
يا لها منْ أملٍ قد صوَّرا ... طائرًا يطلب رزقًا قُدِّرا
أرأيت العَزْمَ في شكل جناح ... خافقًا لا ينثني دونَ النَّجاح
لا يصد الطيرَ خوفُ التَّهلُكه ... أو تبالي بطريقِ مهلكه

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٥١- ٣٥٢).
(٢) العقاب: جمع عقبة.

ضرب المختـــار هــــذا مـــثلا للـــذي يـسعى عظـيًما أمـلا [(١)]

أرأيـــتَ الطَّـــير في أوكارهــــا راجيــاتٍ رزقهــا في دارهــا؟

ثاويـــاتٍ تبتغـــي أرزاقهـــا ليس تَـدْري مـنْ إليهـا سـاقها

مـــن ونـــى في ســعيه لم يتَّكِــلْ إنَّــه للــوهم والعَجْـزِ وكـل

إنَّــما الــتُّكلان عــزمٌ وعمــل إنَّـه الإقـدامُ في ضـوء الأمـل

إنَّـــه الإعـــداد والعـــزم معًـــا إنَّــه الحــرُّ إلى القــصد سـعى

إنَّــه التقــديرُ في ســعي البــشر هو عنـدَ الله مـنْ بعـضِ القـدر

هِمَـــمُ الأحـــرار في إيمانهـــا سُـــنَنُ الخــلَّاق في أكوانهـــا

ســـنةُ الله التـــي لا تبـــدَّلُ مـا لهـا كـرُّ اللّيـالي حـوَّلُ [(٢)]

□وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

آهِ مـــنْ لي بقلـــوبٍ واعيـــه مُقْـدِماتٍ في المعـالي سـاعيه

آهِ مَـــنْ يفقـــه هـــذا الكَلِـــما؟ آهِ مــنْ يــدركُ هــذا الــنَّغما؟

أيُّهــا المــسلمُ مــاذا قَــدْ عــدا؟ كنتَ في الأرض جهادًا وَهُـدى

آهِ للنُّـــور الـــذي قـــد طفئـــا آهِ للْقَلْــبِ الــذي قَــدْ صَـدِئا

آهِ للنَّـــار الـــذي تـــشتعل فيـضيء الأرضَ منهـا شُـعَلُ

خَمَــدتْ فالقلـب بـردٌ وهمـود خَمَدَتْ فـالنَّفس عَجْـزٌ وركـود

---

(١) كما جاء في الحديث: لو توكلتم على الله حق التوكل؛ لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا، وتروح بطانا.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٢- ٣٥٣).

إنَّ هـذا القـول زِنْـدٌ وحجـر ... ليت شعري هل لديه مـنْ شرر
إننـــي أُضْرِمُ هــــذا الألمــــا ... علَّـه في القلـب يـذكي ضَرَمـا
إنـي أنفـخُ في هـذا السَّـواد ... عـلَّ جمـرًا محرقًـا تحـت الرَّمـاد
علَّنــي أُذْهــبُ هــذا الخبثــا ... علَّنــي أمْحَــقُ هــذا العبثــا
إنَّنــي أبعــثُ فـيهم نغمــي ... علَّنــي أبْعــثُ مَيْــتَ الهمــم
إنَّنــي أُمْطــرُ في أرضٍ مــوات ... علَّهـا تُنْبـتُ ألـوان النَّبـات(١)

الأمل وعلو الهمة:

لا ترانـــا في جهـــادٍ نيـــأسُ ... لَـيْسَ مِـنْ أُمَّتنـا مَـنْ يئـسوا
أشـعل الإيـمان في كـلِّ دُجـى ... واقـدحِ العـزم إذا الهَـوْلُ دجـا
وَارْفَعَـنْ في كـلِّ ليـلٍ شُـعَلا ... وابعـثنْ مِـنْ كـلِّ يـأسٍ أمـلا
وصـلِ القَلْـبَ بخـلَّاق الرجـاء ... واخلقَـنْ في كـلِّ حـينٍ مـا تـشاء
إنـما الإنـسانُ فكـرٌ وعَمَـل ... يَـصْدعُ الظلـماءَ في نـور الأمـل
أمـل الإنـسان في القلـب ضـياء ... وهـو في الكـفِّ جهـادٌ ومَـضاء
إنَّــه النَّــار التــي تَــشْتَعلُ ... إنَّــه الـنَّجمُ الـذي لا يأفُـلُ
إنْ دَجَـا باليـأس ليـلٌ غَيْهَـب ... يَـصْدَعُ الظُّلمـةَ هـذا الكوكـبُ
هــو وَحْــيُ الله يهـدي عبـده ... ويُرِيـه في الـدَّياجي قَـصْدَه

(١) المصدر السابق (١/ ٣٥٣).

هــو نــورُ اللهِ في أفــق النجــاه ... هــو هــدي اللهِ في هــذي الحيــاه

إنَّــه القُطــب إليــه يَنْــزعُ ... كــلُّ قلــبٍ وإليــه يَفْــزعُ

إبــرةٌ تهــدي إلى قَــصْدِ الــسبيل ... تَقْــصدُ القُطْــبَ وعنــه لا تميــل

يــا دلــيلًا هاديًــا في كــلِّ واد ... أنــت سرُّ اللهِ في كــلِّ فــؤاد

يَقْــدحُ القلــبُ إذا مــا خفقــا ... شررًا منــه منــيرًا مُحْرِقــا

فهــو نــورٌ وهــو نــارٌ يَلْــذَعُ ... يوضــح الــنَّهج وفيــه يَــدْفعُ

فأوْمُــلْ لخــيرٍ وصــابرْ لا تمــلّ ... إنَّــما الــدُّنيا رجــاءٌ وَعَمَــل

وقــضاءُ اللهِ عــونُ الآملــين ... وهــو في عَــوْنِ الأبــاةِ العــاملين

لا يــردُّ اللهُ قلبًــا آمــلا ... لا يــردُّ اللهُ عبــدًا عــاملا

ربَّ عبــدٍ مخلــصٍ قــدْ أقــسما ... فــأبرَّ اللهُ مِنْــهُ القــسما [1]

وجهــادُ العبــد أولى أن يُــبر ... إنَّــه الفعــلُ عــلى القــولِ أبــرّ

إنَّ عــزمَ الحــرِّ فيــه قَــسَمُ ... مُــضْمَرٌ يَعْلَمُــه مَــنْ يَعْلَــمُ

قــد تــولَّى اللهَ هــذا المقْــسِمُ ... فــدعاه في يقــينٍ يقــسم [2]

---

(١) إشارة إلىٰ ما جاء في الأثر: «ربَّ أشعث أغبر لو أقسم علىٰ الله لأبره».

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٥٤).

المعراج[(١)] **:**

□ يقول إقبال:

وذَرَّةٍ طـار فيهـا الـشَّوقُ صـاعدةً ... تُغيرُ في عَرَصات الشَّمسِ والقمـرِ

يا رِفْقةَ المَرج! تلقى الصقرَ مُقدمـةً ... دُرّاجـةٌ تمـلأ الأنفـاسَ مـن شرَر

المـسلمُ الـسَّهم، والأفـلاكُ غايتُـه ... سرائرُ الرُّوح في المعراج فـادَّكر[(٢)]

جهلتَ ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ أسرارًا فلا عجبٌ ... ما زال مَدُّك محتاجًـا إلى القمـر[(٣)]

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا طغـى الـيمُّ فهيَّـا أقـدمْ ... مـا حـاجتي مَلّاحـه والـسُّفُن

لقـد محـا سـحرَك تكبـيري فهـل ... تَقْوى على جحـوده يـا وَهِـن؟[(٤)]

المؤمن عالي الهمة:

□ قال عنه إقبال:

إنَّ للمـؤمن العجيـب الـشانِ ... كـلَّ حـينٍ جديـدَ شـانٍ وآنِ

---

(١) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو على الشمس والقمر، والدُّرَّاجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر، فإنما القوة الحق قوة الروح، لا شيء يستعصي عليها.

(٢) يريد أن في المعراج سرُّ الروح. وهو رمز إلى أنَّ المسلم سهمٌ هدفه الفلك.

(٣) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم، التي يذكر فيها الوحي، وتقريب الرسول إلى ربه. وليس جهلك عجيبًا، فإن نفسك لم تكمل، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه، كما يحتاج البحر إلى القمر في مدِّه «ديوان إقبال» (٢/ ٢٤).

(٤) «ديوان إقبال» (٢/ ٤١).

هــو في قولـه الـسِّديدِ وفي الفعـل ... عـــلى الله واضـــحُ البرهـــانِ

فيـــه قدســـيّةٌ إلى جـــبروتٍ ... ومـــن القهـــرِ فيـــه والغفـــرانِ

إنْ تُؤلَّـف هـذي العنـاصرُ كـان ... المـسلمُ المـستعلي عـلى الحِـدْثان

هــو تُـربٌ سـما يجاورُ جبريـلَ ... ويـــأبى الحلـــول في الأوطـــان

لـــست تـــدري بـــسرِّه فـــتراه ... قارئًـــا وهـــو صـــورةُ القـــرآن

فيـه عـزمٌ عـلى القـضاءِ دليـلٌ ... وهـــو في العَـــالَمِين كـــالميزان[1]

هــو بَـرد النَّـدى بقلـب شـقيقٍ ... وبقلـــب البحـــار كالطُّوفـــان[2]

ليلـــه والنهـــار لحـــنُ حيـــاةٍ ... في انـسجام كـسورةِ الـرَّحمن[3]

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ:

يبلـــغُ المنـــزلَ ســـارٍ لا ينـــامْ ... مُـسرجٌ عـينَ هِزبْـرٍ في الظـلامْ

إنَّـــما للعبـــدِ تُمنَـــى راحـــةٌ ... لـيس للحـرِّ عـلى الأرض حمـامْ

□ ويقول عن الرجل العظيم:

هـــو في الحـــبِّ عميـــقٌ ... وهـــو في الـــبُغْض عميـــقْ

وهـــو في المَجْمَـــع خـــالٍ ... ومِـــن الحـــشْرِ طليـــقْ

---

(١) يقول إقبال في مواضع كثيرة: إنَّ عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على القضاء والقدر، وإنَّ رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة. وهنا يقول: إنَّ ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة.

(٢) هو تارةً كالنَّدى يبرد قلب الشقائق، وتارةً كالموج الهائج في البحر.

(٣) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٣).

مثــلُ شــمع الحفــل؛ في الحفــل وحيــد ورفيــقْ [١]

مثلُ شمس الصُّبح؛ فِكرٌ ... فيــه نُــورٌ وبَريــقْ

لفظــه حــرٌّ يــسيرُ ... لكــنِ المعنــى دقيــقْ

نظــرٌ فيــه ســديدٌ ... عن بني العصر سحيقْ [٢]

□ويقول:

لـن يكـونَ الـشَّاهينُ عبـدَ بُغَـاثٍ ... ألحفظِ الأبـدانِ رُوحـي أُبـيرُ؟ [٣]

□وعن علوِّ همّة الزاهد في الدنيا يقول:

تُـذلُّ الحـوائجُ صـيدَ الرِّجـال ... تـرى الليـث كالثَّعلـب المحتقَـر

إنِ الــذَّاتُ أيَّــدها فَقْرُهــا ... فعنـدي وعنـدك مُلـك البَـشرْ

قِــوامُ الــشُّعوب بحُــرٍّ فقــيرِ ... إلى سُـدّة المُلـك مـا إنْ نظـر [٤]

□ويقول لصريع الفرنجة دنيِّ الهمَّة:

مِـنْ تجلّي الفـرنج نلـتَ وجـودًا ... فهـمُ منـك هـيكلًا قـد أقـاموا

ومن (الذات) هيكل التُّرْب خالٍ ... أنـت غِمـدٌ مُـذَهَّب لا حـسامُ

ووجــودُ الإلــه عنــدك ريــبٌ ... وأرى الريـبَ في وجـودك أنتـا

---

(١) يكون في جمعٍ من الناس كأنه وحده، له فكره ونظره. مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين، ووحيدة بحرقتها ونورها.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ١٠٣).

(٣) «ديوان إقبال» (٢/ ١٢٥).

(٤) المصدر السابق (٢/ ١٢٦).

إنَّما الكونُ جوهرُ (الذات) يُجْلَى فانظرنْ أيَّ جوهرٍ قد دفنتا [١]

ويقول عنه أيضًا:

بلا دينِ ولا تينِ هوَتْ في الفخّ رجلاه [٢]

دواءُ العاجزِ المغلوبِ «لا غلّابَ إلا هُو»

وصيَّادُ المعاني ما رَجَتْ في الغَرب عيناه

فضاءٌ مونِقٌ لكنْ غزالُ المِسك خَلَّاه [٣]

يقوِّم ذاتَه سحَرًا بدَمع العَيْنِ أوّاهْ [٤]

فهذا الزَّهْر أحسَنُه على الأمواهِ تلقاهُ

وديرُ الكون، زُونُ الرِّيح والألوانِ معناهُ [٥]

على الكُفار مُستوْلٍ وذو الإيمان مولاه [٦]

أمَّا عالي الهمة عنده فهو:

كالعقابِ صَيْدُه للنَّيِّرَيْن في السماء طوفه بالخافِقَيْن [٧]

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٦).

(٢) يشير إلى مصطفى كمال واتِّباعه سياسةً لا دينيةً، واتِّخاذه الحروف اللاتينية للغة التُّركية.

(٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكيًا يصيده فإنما هي فضاءٌ لا صيد فيه. أي: لا يجد المعاني الجميلة التي يحبُّها.

(٤) الأواه: المتعبِّد، الرقيق، كثيرُ الدعاء.

(٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنامٍ من الألوان والروائح، يستعبد الكفرَ، ولكنَّه مسخرٌ للمؤمن.

(٦) «ديوان إقبال» (٢/ ١٢٩).

(٧) المصدر السابق (٢/ ١٦٢). والنَّيِّرَان: الشمس والقمر. والخافقان: المشرق والمغرِبُ.

□ وعن عالي الهمة يقول:

قد عَلَا منزلة الشمس مقامًا ضارِبًا في مسبح النجم خيامَا

□ ويقولُ عن عالي الهمَّة مشرقِ الإيمانِ قدسيِّ الضمير:

لا تحاولْ دركَ المعَالي بكاووسَ وخسرو في غابرِ الأزمانِ

طُفْ إذا شئتَ حَوْلَ ذاتِ: حرًّا لا تَطُفْ بالسَّريرِ والإيوان

قَدْ تباعَدْتَ عن مَقامِك حتَّى صِرْتَ في ذِلَّةِ الأسيرِ العَاني

لا تَسِرْ واهنَ الخُطى كبغاثِ الطيرِ بين الطُّلولِ والجُدْران

كُنْ نَظِيرَ الشَّاهين في القِمَمِ الشَّمَّاءِ لا في مسارِب الوُدْيَان

تتحرَّى الطيورُ عِنْدَ بناء العُشِّ أعلى الفروع في البُسْتان

لَسْتَ دونَ النُّسور بأسًا فحاولْ دارةَ النَّجْم أو ذُرى كِيوان

مِنْ مِهادِ الثَّرى إلى التِّسْعةِ الأفلاكِ فَوْقَ الزَّمان فَوْقَ المَكَان

غَيِّرِ العالمَ القديمَ وعَمِّر فيه دُنيا جديدةَ البُنْيان

والذي يَنْشُد الجِهاد فناءً في رضا الحقِّ وهو ماضي الجَنانِ

هو سرُّ الأقدارِ وهو قضاءُ الحقِّ في المُمْكناتِ والإمكانِ

فَتَمثَّلْ نضالَ أسلافِك الأمجادِ نَحْوَ العُلى بغيرِ تَوَاني

وتَدَبَّرْ كيف استهانوا بِبَذْلِ الرُّوح والمالِ في رضا الرَّحمن

أظْهرِ الجَوْهَرَ الكريمَ مِنَ الأصداف واجْعَلْهُ باديًا لِلْعيَان

وتَحَرَّرْ مِنْ هيكلِ الماءِ والطِّين وَمِنْ ظُلمةِ الهوى والهَوان

واجعلِ الفطرةَ النقيَّة نبراسًا لعينيكَ بَيْنَ قاصٍ ودان

كـلُّ مـنْ ضـاعَ حظُّـه مـنْ جـلالِ الحـقِّ بَـيْنَ الجُحـودِ والنِّـسيان

لَم ينَـلْ طُـوْلَ عُمْـرِه مـنْ جمـالِ الحـقِّ غَـيْرَ الإبعـادِ والحِرْمـان

مبـدأ العِـشْقِ والـصَّبابة قَهْـرٌ وخطـوبٌ موصـولةُ الأشـجان [(١)]

وهـو مـنْ بعـدها دلالٌ وتيـهٌ بـين طيـبِ المثنـى وَصَـفْوِ الأمـاني

ويعـودُ المحـبُّ بـالقُرْبِ محبوبًـا وَيَنْـسى لـواعجَ الهِجْـران

الوجـودُ الأسـمى هـو المـؤمنُ الحـرُّ الأبيُّ الـوفيُّ في كـلِّ آنِ

وبقايـا الوجـودِ فـيما سِـوَاهُ مَظْهـرٌ حائـلٌ وظـلٌّ فـانِ

حِـيْنَ يَـدْعُو أنْ لا إلـه سـوى الله القـديرِ المهـيمنِ الـدَّيَّان

يُـذْعنُ الكَـوْنُ والمكـانُ ولا يُـشْرِقُ إلَّا بفـوزِه القَمَـرانِ [(٢)]

□ويقول عن العرب المسلمين عُلاةِ الهِمَم:

يا لها مـنْ ذِكـرى لأمجادِ العَـرَبْ ... آيـةٌ كُـبْرَى وتـاريخٌ عَجَـبْ

حـرَّروا أقـدارَهم بالعَزَمـاتِ ... في جميع الكَوْنِ مـنْ كـلِّ الجهـاتِ

فازْدَهى مـنْ نـورهم كـلُّ مكـانِ ... وتغنَّـى باسـمِهم كـلُّ زمـانِ

لمْ تَـدُمْ عُـزَّى [(٣)] ولم تَبْـقَ منـاةُ [(٤)] ... هَـوَتِ الأصـنامُ تَحْـتَ الـضَّرباتِ

---

(١) الأشجان: الهموم والأحزان.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٥٠- ٣٥١).

(٣) عُزَّى: صنم كان لبني كنانة وقريش، أو شجرة من السَّمُر كانت لغطفان بنوا عليها بيْتًا وجعلوا يعبدونها، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه فهدم البيت وأحرق السَّمُرَة..

(٤) أحد أصنام العرب في الجاهلية.

حِيْنَ نـادى المؤمنـون (الله أكـبر) زالَ كِسْرى وانْطَوَتْ أعلامُ قَيْـصَر
أيُّ سـيل هـادرٍ عـمَّ الـصَّحارى أيُّ طوفـانٍ جـرى يغـزو البحـارَ
هـؤلاءِ العَـرَبُ الـصِّيدُ الأبـاه وحَّـدوا الخَلْـقَ بتوحيـدِ الإلـه
شـعلةٌ مِـنْ نورهـا الحـقُّ أضـاء مـنْ تحـدَّى نارَهـا أضـحى هَبَـاء
قـد أبـادوا كـلَّ شـيطانٍ مريـد وأزالـوا كـلَّ جبـارٍ عنيـد
وسَـمَوْا فـوقَ الـدَّراري منـزلا كلُّ هـذا كـانَ مـنْ أنـوارِ (لا)[1]
بيـنما العـالمُ كـالعَظْم الـرَّميم في سـهوبِ الأرضِ أو دَيْـرٍ قَـدِيم
أنـشؤوا دنيـاه في خلـقٍ جَدِيْـدْ وأقاموهـا عـلى النَّهْج الرَّشـيد
أيقظـوا الـدُّنيا بتكبـير الأذان فجـرى الحـقُّ عـلى كـلِّ لِـسان
كـلُّ خـيرٍ يُرتجـى مـنْ غَرْسِـهم كـلُّ نـورٍ يُجْـتَلى مـنْ شَمْـسِهم
كـلُّ روض بالمعـالي مُخْـصبُ فهـوَ مـنْ شـاطئ نَهْـرِ العَـرَب
قد أزالَ العُرْبُ من لوح القُلـوب نَقْـشَ غـير (الله)، عـلَّام الغُيـوب
فأقـاموا في شَـمالٍ وجنـوب ثـورةَ الإيـمانِ في كـلِّ الـشُّعوب
فـترى في أُمـم الغَـرْب العبيـد حطَّمـوا القَيْـدَ بعـزم مـنْ حَدِيْـد
أعلنُـوا الحـربَ عـلى سـاداتهِمْ واسـتردُّوا أَمْـنَ حرِّيَّـاتِهِمْ

⁂

يـا مقـيمًا في زوايـا الحُجُـرات يَحْشُدُ الألفـاظَ حَـشْدَ المَكْتَبـات
إنْ تكـنْ في مثـل نـيران الخليـل أَسْـمِع النّمـرُودَ تَوْحِيْـدَ الجليـل

---

(١) لا: أي لا إله إلا الله.

والــذي تبـصرُه حـولَ الفَـضاء لا يــساوي قَــدْرُه وزنَ الهَبَــاء
كـلُّ حـرٍّ في يديـه سـيفُ (لا)[1] ثــمَّ لا يَقْبَــلُ عَنْــهُ حِــوَلا
فهـو للعليـاء دومًـا في صُـعُود أمـرُه النَّافـذُ في كـلِّ الوجـود
أيهــا الــشادي بقــرآنٍ كــريم وهــو في عُزْلتِــهِ نــاءٍ مُقــيم
قــمْ واسْــمِعْه لكــلِّ العــالمين قُــمْ وأبْلِغْــه البَرايــا أجمعــين[2]

❊❊❊

عِـشْ ولـو يومًـا عزيـزَ المَطْلَـبِ أجنبيًّــا عــنْ طريــقِ الأجْنَبــي
مَنْزِلُ الـشَّاهينِ في أوجِ الـسَّحاب مــا لَــهُ يَــسْكُنْ في وَكْـرِ الغُـرَاب
لم يَـزَلْ في الـرَّوضِ ظـلٌّ وَثَمَـر فـالتَمِسْ عُـشَّك في أعـلى الـشَّجَر
كُنْ كحدِّ السَّيفِ في صِدْقِ المَضاء واحْتَسبْ نَفْسَكَ في كفِّ القَـضاء
إنَّ في رُوحــك ســيلًا كالعُبــاب يَنْـسفُ الـشُّمَّ ويهـوي بالهِـضاب
انــدفاعُ الــسَّيْل إثبــاتُ البقَــاء وســكونُ اللَّيْــل معنــاهُ الفَنَــاء
أنــا لمْ أســلُكْ إلى الفِقْــهِ ســبيلا أتحــرَّى الحُكْــمَ فيــه والــدَّليلا
لم أكــنْ في الفَقْــرِ ذا فهــم دَقِيْــق في ســلوكٍ بــين رُوَّادِ الطَّريــق
فكرةٌ جاشَ بهـا القلـبُ اضْـطرابا ثمَّ لمْ أمْلِكْ عـن القَـوْلِ احْتِجَاجـا
كُنْــتُ في الــدِّين حَدِيْــدَ البَـصَر رَغْــمَ مــا بي مــنْ قــصورِ النَّظَــر
وانجلــت واحــدةٌ بَــيْنَ مئــات بَعْـدَ لأي مـن ألـوفِ المُـشكِلات

---

(١) لا: أي لا إله إلا الله.
(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٥٦- ٣٥٨).

فـاغْتَنِمْ مـنْ فـاقتي حظًّـا يـسيرا   فَعَـسَى ألا تـرى مِـثْلي فَقِـيرا

أيهـا الـشَّادي بقـرآنٍ كـريم   وهـو في ركـن مـن البيـتِ مُقِـيْم

قُـمْ وأبْلِـغْ نـورَه للعـالمين   قُـمْ وأسـمعه البَرايـا أجمعـين

إنْ تكُـنْ في مِثْـلِ نِـيرانِ الخَليـل   أسْـمَعَ النَّمـرودَ توْحِيْـدَ الجَليـل

منْ لـهُ مـنْ ثـروة الهـادي نَـصيب   فَهْوَ مـنْ جبريـلَ في الـدُّنيا قَريـب

يـا غريبًـا عَـنْ مقـام المُـصْطفى   عُدْ إلى الحـقّ تَجِـدْ نُـوْرَ الـصَّفا [(١)]

❊❊❊

□ وعن الرجل الحرِّ من كل قيود الأرض، عالي الهمة يقول:

فَوْقَ مسرى الـنَّجْمِ للحـرِّ هَـدَفْ   وِرْدَهُ في كـلِّ حـينٍ لا تَخَـفْ

آمِـنٌ في سِـلْمِه في حَرْبِـه   رأسُـه في الكـفِّ لا في جَيبِـه

عَـرَفَ اللهَ فَلَـمَ يَرْهَـبْ سِـواه   كيفَ يخشى الخَلْقَ منْ خافَ الإلـه

لا يـرى قـطُّ مَـعَ البُـؤْسِ المريـر   عَبْـدَ سـلطانٍ ولا ظِـلَّ أمِـيْر

جمَـلٌ في البِيْـدِ موصـولَ الـصِّيام   يَحْمِـلُ الأثقـالَ والـشَّوْكَ طَعـام

هُـوَ نَـبْضٌ في عُـروقِ الأمَـلِ   وهـو سَـعْيٌ في طريـق العَمَـلِ

مـنْ عـلا تكبيرُه مِـنْ غـير تَـاج   يُلْـزِمُ التيجـان تقـديمَ الخَـراج

قَـدْ ذَكَـتْ نيرانُنـا مِـنْ جَمْـرِه   وَجَـرَتْ أنهارُنـا مِـنْ خَمْـرِه

جنَّـةُ الـوَرْدِ شـذًا مـنْ سِـحْرِهِ   شـعلةُ المَجْـدِ سـنًا مـنْ فكـره

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٦٢).

وترى في قصرهِ ربَّ السَّرير ... راعشًا منْ سَهْمِ عُرْيانٍ فَقِيْر

شأْننا في الدِّين لا يعدو الخَبَرْ ... وهو في الدِّين شُهودٌ ونَظَرْ

نَحْنَ عند الباب نستجدي الأماني ... وهو في الدَّار وفي طِيْبِ المَجَاني

أصْبَحَ الدَّيرُ لدينا مَقْصدا ... نحنُ لِلْغَيْرِ نبيعُ المَسْجِدا

وهو يُسْقَى منْ يمينِ المُصْطفى ... كوثرًا عَذْبًا به الوردُ صَفا

في ضميرِ الحرِّ تكبيرُ الإله ... في جبينِ الحرِّ تقديرُ الأُمم

نحنُ للإفرنج أسْلَمْنا القِيادا ... واتخذناهُم لدى الجُلَّى عَتَادا

وابتغينا عندهم عِزَّتنا ... وجعلنا ودَّهم قِبْلتنا

وشعارُ الحرِّ عزمٌ وإباء ... رزقُه مِنْ يدِ جبَّار السَّماء

فلغير الله ما مَدَّ اليمين ... لغير الله لم يَحْنِ الجَبين

متعةُ الدُّنيا لنا كلُّ المَرام ... ثمَّ يأْسٌ ثُمَّ قَبْرٌ وظلام

هو في الحقِّ جهادٌ وثبات ... موتُه إحدى مقاماتِ الحَياة

إنَّنا نبني قصورًا في الخيال ... ونرى المُمْكنَ في حُكْمِ المُحال

وهو بالأعمال في كلِّ مجال ... لا يُضيعُ العمرَ في زَيْفِ الخَيال

لو رمى شُمَّ الجبالِ العاتيه ... حوَّل الصَّخْرَ بحارًا جاريه

اجتنبْ صُحْبَتَنا واسْعَدْ به ... إنْ تُرِدْ خيرًا فكنْ من صَحْبِهِ

الزَمِ الحرَّ ودعْ أهلَ البَوَار ... اهدمِ الدَّارَ وكنْ صاحبَ دار

صـحبةُ الحـرِّ إلى العليـاءِ بـاب — هـي خـيرٌ لـكَ مـنْ ألـفِ كِتَـاب

صـحبةُ الحـرِّ تنـيرُ العـالم — وَلَقَـدْ تَخَلَّـق مِنْـهُ آدم

قُرْبُـه للعـزِّ أصـفى مَنْهَـلِ — لـكَ في البَحْـر غنـىً عـنْ جَـدْوَلِ

هُـوَ يَـوْمَ الـسِّلْم في أوطانـه — آيـةُ التغيـيرِ في عُمرَانـه

بجديـد الفِكْـرِ يحـي عَـصْرَهُ — مِـثْلَما يَنْـشُر رَوْضٌ عِطْـرَهُ

وَهْـوَ يـومَ الحَـرْبِ في مَيْـدانها — ثـورةُ البُركـان في نِيرانهـا

سـيفُه يحفِـرُ فيهـا قَـبْرَه — أو يـتمُّ اللهُ فيهـا نَـصْرَهُ

لـيسَ زَرْعُ القلـبِ في مـاءٍ وطـين — هينًـا إلَّا لأصـحابِ اليقـين

إنْ أردْتَ العَـيشَ حُـرًّا صـافيا — فـالتزمْ في الـدَّهر حـرًّا هاديـا[1]

□ وقد أعاد صياغتها الشيخ الشاعر الصاوي شعلان في رباعيَّاتٍ فقال:

أقْبَـلَ الحـرُّ عـلى يـومِ الفِـداء — ومضى يرمي عـلى الـنَّجْمِ الهَـدَفْ

وكـأنَّ الـوَحْيَ لَقَّـاهُ النِّـداء — مـنْ سـماءِ الله أقـدِمْ لا تخَـفْ

❊❊❊

أشْرَقَ التوحيـدُ نـورًا في هـداه — وسرى التحريـرُ مِنْـه في الـضَّمير

أتُـرى مـنْ لم يَخَـفْ غـيرَ الإلـه — يَرْهَبُ السُّلطان أو يَخشى الأمـير

❊❊❊

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٦٣- ٣٦٤).

روحُـه تكـشفُ أسرارَ الخُلـود عن حياةٍ ما لها في الدَّهْرِ مَوْت
يرسلُ التكبيرَ مِنْ قلبِ الوُجود لغةٌ تُغْنيه عن حَرْفٍ وَصَوْت

سلْ ملوكَ الأرضِ عن دُنيا الغُرور في الملاهي خَلْفَ أستارِ الحرير
زَلْزَلَتْهُمْ بين أبراج القُصور ضربةٌ مِنْ سَهْم عُريانٍ فقير

ضَرَبَ البَحْرَ كموسى بعصاه ورمى الصَّخْرَ حُطامًا مِنْ زجاج
ذلك الأوَّابُ في ثوبِ تقاه ألزمَ التِّيجان تقديمَ الخَرَاج

قَدْ جَرَتْ أنهارُنا مِنْ بَحْرِه وأضاءتْ نارُنا مِنْ خمره
بسمةُ الوَرْدِ شذا مِنْ عِطْرِهِ شعلةُ المَجْدِ سنا مِنْ فِكْره

شأْنُنا في الدِّين لا يعدو الخَبَرْ وهو في الدِّين شهودٌ ونَظَرْ
نحنُ عند الباب في ظلِّ الشَّجَرْ وهو في الدَّار وفي مَجْنَى الثَّمَرْ

لبني الإفرنج في الدُّنيا عَبِيْد في قيودٍ من حريرٍ أو حَدِيْد
كمْ تغنَّى بمزايا بايزيد ذو رياءٍ وهو للوردِ مُرِيْد

في حديثِ المُصْطفى شمسُ الهُدى كلُّ أرض مَسْجدٌ للمؤمنين
كيف تبني فوق أرضٍ مسجدًا إنْ تركت الأرض للمُستَعْمِرين

لَـيْس حُـرًّا مَـنْ يُـرَى مُـسْتَعْبَدًا لِـسَوى مَـنْ في يديـه رِزْقُـهُ
سَـيِّد مَـنْ لـيس يـرضى سـيِّدًا مـا خَـلَا ربِّي فَكُـلٌّ عَبْـدُه

في ضـمير الحُـرِّ تكبـير الإلـه في جبـين الحُـرِّ تقـديرُ الأُمَـم
مَوْتُـهُ أعـلى مقامـاتِ الحيـاه تَرْفَـعُ الـدنيا لـذكراهُ العَلَـم

هـو يـوم الـسِّلْم في نَهْـضتِه بيَـدِ الإصـلاح يَبْنِـي عَـصْرَهُ
ويُـذِيع الخـيْرَ في أُمَّتِـه مِـثْلَمَا يَنْـشُر روضٌ عِطْـرَه

وَهْـوَ يـومَ الحَـرْب في سَـاحَتِهِ سـيفُه يَحْفِـرُ فيهـا قَـبْرَه
يتحـدَّى المـوتَ في وَثْبَتِـهِ أوْ يُـتمُّ العَـزْمُ فيهـا نـصرَه

إنَّ غَـرْسَ الحـقِّ في نـورِ القُلـوب غَـيْرُ شـأنِ الـزَّرع في مـاءٍ وطـينْ
فالتَمِسْ للمجْدِ أحرارَ الشُّعوب إنهـم في الـدهرِ أعـلامُ اليقـينْ [١]

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ:

وأيـة أمـة ترجـو الأمـاني بـلا جَهْـدٍ وتمـضي في رُكـودِ [٢]

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٤- ٣٦٦).

(٢) الرُّكود: الهدوء والسكون.

يكُونُ مصيرُها عَدَمًا ومَحْوًا ... وينسى نَقْشَها سِفْرُ الوجود

□ ويقول عن القلب عالي الهمة:

فيا مَنْ هامَ بالدُّنيا متاعًا ... وأصبحَ همُّه شبعًا ورِيًّا[1]

تَطْلُبُ في حُضُورِ الحقِّ قلبًا ... وفيًّا صادقَ الإيمانِ حيًّا

فهذا القلبُ للدُّنيا سراجٌ ... له أممُ الخليقةِ في انتظار

وهذا القلبُ مَعْدِنُه ترابٌ ... وَجَوْهَرُه فريدٌ في الدَّراري[2]

يفوقُ السَّبْعَة الأفلاكَ قَدْرًا ... بهمَّتِه ولا يألو رُقِيًّا

يقيمُ على الثَّرى وله أمانٌ ... إلى العلياء أدناها الثُّرَيَّا[3]

وفي حرب ضروس[4] كلَّ حينٍ ... مع التَّاريخ مُتَّصل النِّضالِ

بضَرْبَتِهِ الجبالُ تصيرُ عِهْنًا ... وَتُرْهِبُه الضراغِمُ في الجِبَالِ

ترى لِشعورِه المشبوبِ نارًا ... تُوْقَدُ مِنْ حرارَتها ذُكاءُ

له ممَّا سوى التنورِ خبزٌ ... ومِنْ غَيْرِ الطَّعام له غَذَاءُ

---

(١) رِيًّا: مصدر رَوِيَ، أي: شَرِب.

(٢) الدراري، جمع الدُّرِّيّ: نسبة إلى الدُّر في حُسنِه وبهائه.

(٣) الثُّرَيَّا: مجموعة النجوم.

(٤) حرب ضروس، أي: شديدة مُهْلِكَة.

حـضورُ الحـقِّ يملـؤه يقينًـا فمنـه الخـوفُ مَحْـضًا والرَّجـاء
شـهودُ الحـقِّ إنْ هُـوَ غـابَ عنـه فلـيسَ لـه عـلى الـدُّنيا بَقَـاءُ

طيـف الجلـواتِ والخلـوات طُـرًّا يـضيء الكـونَ بـالرأي المُنـيرِ
ومـا للعِـشْق في سُـكْرٍ وَصَـحْوِ دليـلٌ غَـيْرَ أواب فَقِـيْرِ

فـصاحبْ مـنْ لـه قلـبٌ عظـيمٌ لعلَّـك تـدركُ الأمـرَ العظـيما
وُلِـدْتَ عـلى مهـاد الـذُّل عبـدًا فجاهـدْ ثـمَّ مُـتْ حُـرًا كـريمًا [1]

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَدْ بَلَوْتُ الـرِّقَّ [2] مُنْـذُ الابتـدِاء لَمْ يكـنْ مهـدي في أرضِ الحَـرَم
مِنْ رسولِ الله يَعْـروني الحَيَـاء [3] حِـيْنَ يَـدْعُو باسـمِه الغـالي فَمِـي

لـكَ قلـبٌ ومـع القَلْـبِ ضـمير أمْ غدا صـدرُك للأصـنام دَيْـرا [4]
أنْـتَ للغَاصـبَ محكـومٌ أسـير تَحْتَ حُكْم الغَيْرِ لـن تَـصْنَعَ خَـيْرا

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٧٢- ٣٧٣).
(٢) الرِّق: العُبوديَّة.
(٣) يعروني الحياءُ: يُصيبني الحياءُ.
(٤) دَيْرًا، مصدر من دَارَ يدورُ، أي: طَافَ حولَه.

تـدَّعي الحُـبَّ لخير الأنبيـاء أكْـذَبُ الأقـوالِ مـا لَمْ يَبْـدُ فِعْـلا
وإذ لَمْ يَتبَـع القـولَ اقتـداء لَمْ يكـن لِلْحُـبِّ أوْ لِلْقُـرْب أهـلا

لَـذَّة الإيـمانِ عنـد المـؤمنين قَـلَّ أنْ يُـدْرِكَها عبـدٌ ذَليـل
مـسلمٌ مُسْتَـسْلمٌ للطَّـامعين آزريٌّ [1] حـادَ عـن ديـن الخَليـل

صـلواتُ الحـرِّ بعـثٌ للـشُّعور فهـي مِعْـراجٌ إلى العَـيْشِ الكَـريم
وصـلاةُ المَـرْءِ في غـير حُـضُور عـادةٌ جوفـاءُ في رسـم قَـدِيْم

إنَّ للأحـرار في العِيْـدِ الـسَّعيد مَظْهَـرُ العِـزَّة في دُنيـا وَدِيـن
ولدى الأسرى وفي عـيشِ العَبِيْـد يُـصْبحُ العِيْـدُ هَجْـوَ المُـؤْمنين

إلى الأمة العربية الإسلامية :

□ قال إقبال رَحِمَهُ اللهُ: «أيتها الأمةُ العربية! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود، مَنِ الذي سَمِعَ العالم منه نداء «لا قيصر ولا كسرى» لأول مرة في التاريخ، ومنِ الذي أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن؟ مَنِ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد، فنادى بأعلى صوته: «لا إله إلا الله»، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم؟ هل العلم

(١) آزريٌّ: نسبة إلى آزر والد سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

والحكمة إلا فتاتُ مائدتكم، وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلا وصف حالكم، إنَّ نَفَسَ ذلك الأمي أعاد على هذه الصحراء الخِصْبَ والنمو، فأنبتت الأزهار والرياحين، إنَّ الحرية نشأت في أحضانه، وإنَّ حاضرَ الشعوب ليس إلا وليد أمسِه، إنَّ الجسد البشري كان بلا قلبٍ وروح، فأعطاه القلب والرُّوح، وكشف اللثام عن جمال وجهه، إنَّه حطَّم كلَّ صنم قديم، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان العلوم والمدنية، وأنجب أبطالًا وقادةً مؤمنين، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل، فتارةً يدوِّي الأذان في ساحة الحرب، وتارةً يتجلَّى الأذان بقراءة «الصافات» بين صليل السيوفِ وصهيلِ الخيول، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي مفتاحان كنوز الدُّنيا والآخرة.

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه، إنَّ العلم، والحكمة، والشرع، والدين، والملك والإدارة، ولوعة القلوب مقتبسةٌ من نوره، وليست «الحمراء» في غرناطة، وقصر «التاج» في آكره [١]، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين، وعظماء العباد الزَّاهدين، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته، ومظهرًا من مظاهر عبقرية أمته، إنَّ بعض مظاهره تجلَّى في سموِّ ذوق أمته، وسلامة تفكيرها، وجمال فنها، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبارُ العارفين.

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب، وقبضةً من أشلاءٍ وعظام، لا يدري ما الكتاب، ولا الإيمان، فعرَّفه بالعلم والإيمان، وأذاقه لذة العبادة

(١) تاج محل الذي بناه جهانكير، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم.

والإحسان، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء».

□ ثم يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيها العرب قد منَّ الله عليكم؛ إذْ جعلكم مثل السيف البتار أو أحَدَّ منه، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء، تركبون عليها، وتظعنون بها، ثم انعكست الآية، فسخر الله لكم المقادير، فضلًا عن الإبل، فأصبحتم من مالكي أعنَّتها، فلو أقسمتم على الله لأبَرَّكم، وهنالك دوت تكبيراتُكم وصلواتُكم، وزمزمت جلبةُ حروبكم ومغازيكم بين الخافِقَيْن، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب، فما أحسن تلكَ المُغامرات، وما أجملَ تلك الغزوات».

وبعدما يمدحُهم الشَّاعر، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية، وغضبتهم المضرية في الله ورسوله، ويبدي فرحَه وسروره، يقف برهة، يملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط، والإحجام بعد الإقدام، والفُرْقة بعد الوَحْدَة، والعبودية بعد السيادة، والاتباع بعد القيادة، ويقبل إليهم مخاطبًا معاتبًا، ويقول: «أسفًا على هذا الخمود والجمود، أيها العرب! ألا ترون إلى الأمم الأخرى، كيف تقدَّمت وسبقت! أما أنتم فما قَدَّرْتُم قَدْرَ هذه الصحراء التي نشأتم فيها، وهذه الحرية التي ورثتموها، كنتم أمَّةً واحدةً، أمَّةَ الإسلام، فصرتم اليوم أممًا، وكنتم حزبًا واحدًا، حزب الله، فأصبحتم أحزابًا، لقد فرقتم جمعَكم، ومزَّقتم شملكم، وانقسمتم على أنفسِكم.

□ اعلموا أيها السادة! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته، وفقد الثقة بنفسه مات، ومُحي من الوجود، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء، وتطفَّل على مائدتهم، عوقب بالهوان والشَّقاء، والطَّرْد والجلاء،

ألا إنه لم يجنِ عدوٌّ على عدوٍّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم، ولم يُسئ أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمَّتكم، إنكم آذيتم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم، فهي متألمةٌ متوجِّعةٌ شاكيةٌ مستغيثة».

□ الشاعر عارف بمكائد الإفرنج، وما لديهم من سهامٍ مسمومة، وحبائلَ منصوبة، فيُرسل صيحته، يُنذر المسلمين من المصير المُظلم المؤلم، ويقول: «مَهْلًا أيها الغافلون! إيَّاكم والرُّكونَ إلى الإفرنج، والاعتمادَ عليهم، ارفعوا رؤوسكم، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم، إلَّا أنه لا حيلة لكم ولا وزر إلَّا أن تطردوهم عن منهلكم، وتذودوهم عن حوضكم، إن حِكمْة الغرب قد أَسِرَت الأمم، وتركتها سليبة حزينة لا يتملك شيئًا، إنها مزَّقت وحدة العرب، واقتسمت تراثهم، إنَّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكَّر لهم كل شيءٍ، وقَسَا عليهم هذا الكون، ولم يَجِدُوا من يرثي لهم، ويرفُق بهم، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت وضاقت عليهم أنفسهم».

□ ثم يقول للعرب المسلمين: «إنَّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة، ولا تزال فيكم الشرارة كامنة، فقوموا أيها العرب! ورُّوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرَّة أخرى، إنَّ منبع القوة ومصدرها هو الدين، منه يستمد المؤمن العزم واليقين، وما دامت ضمائركم أمينة للسرِّ الإلهي، فيا عُمَّار البادية! أنتم الحُرَّاس للدِّين، وأمناء الله في العالمين.

إن غريزتكم العربية والإسلاميةِ ميزانٌ للخير ميزانٌ للخير والشر، وأنتم ورثة الأرض، إذا تألَّق نجمكم في آفاق السماء أَفَلَتْ نجوم الآخرين، وطُوِي بساطُهم، لن تسعهم الصحراء والفيافي، فاضروا

خيمتكم في وجودكم، الذي يَسَع الآفاق، كونوا أسرع من العاصفة، وأقوى من السَّيْل، حتى تُسْرِع ركائبكم في مضمار الحياة، وتَسْبِق الريح..

فيا رجلَ البادية وسيد الصحراء! عُد إلى قوَّتك وعزَّتك، وامتلك ناصيةِ الأيام، وخذ عِنان التاريخ، وخذ قافلة البشرية إلى الغاية المثلى».

فكِّروا في عَصْرِكُمْ واستبقوا ... طالما كنتم جمالا الأعصر
واملؤوا الصَّحْراء عزْمًا واخلقُوا ... مَرَّةً أخرى بها رُوْحَ عُمَر[1]

تمساحٌ يُعلِّم صغيره علوَّ الهِمَّة:

□ قال إقبال:

وللتمْساح هَذَاكَ الكَلَامُ ... «لزومُ الشَّطِّ في ديني حرامُ»
عَنِ الشطِّ ابتعِدْ، موجًا تسلَّقْ ... نَعِش في بحرنا وَبِه نَنَامُ

❊❊❊

وهذا البحْرُ في صَدْرِ حَمْلَتَه ... وذا الطوفَانُ في حَرْبِ غَلَبْتَهْ
وَلَوْ في بُرْهَةٍ أَعْيَا وأَغْفَى ... لكان مقاتِلًا مَا إن قَتَلْتَهْ[2]

ثُر بهمّة قلبك:

□ قال إقبال:

وهذا القلبُ بَحْرٌ مِنْكَ يَسْكُنْ ... وَمِن جَرَّاك[3] فيه الدُّرُّ يَكْمُنْ
فثُر يا موجُ واحذرْ مِن سُكُونٍ ... فهذا البَحْرُ دَارًا منك يَحْسُنْ

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٣٨٨).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٨٠).
(٣) مِن جَرَّاك: من أجلك.

إلى ذاتٍ لـك الـدَّارَيْن فاجْـذِبْ أَعَـنْ ذاتٍ تُـشرِّقُ أَوْ تُغَـرِّبْ
ويومَـكَ مـنها نـورًا لتُبـصِرْ وهـذا النُّورُ يومَـكَ لا تُجَنِّبْ[1]

لا يبكي الرجال:

□ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مِـن التـبريحِ لا يبكـي الرجـالُ بـصَرْف الـدَّهْر يومًا لم يُبَـالُوا[2]
وقـد تبكـي ولكـنْ لـست مـنهم لدمْعٍ من لظـى الـشوق انهـمالُ[3]
ومَـن في محنـةٍ نَـسِي الفنـاءْ ولـوْ شـهدته في الموت الـسماءْ[4]
وأنـت بموتـه هـذا جـديرٌ وإلَّا فلتمـتْ موتًـا تـشاءْ
تُرابُـكَ وَهْـوَ عـن روحٍ غريـب غصونك ليس يرويها صـبيبُ[5]
عليـك بحرقـةِ الأنفـاس واسـعد فمبـتهج بهـا الـصدر الكئيـب[6]

القلب العَلِيُّ الهمة وارداته:

بِـلَا شَـطٍّ خِـضَمٌّ كـانَ قَلْبَـا يثـيرُ بهيبـة الأمـواجِ رُعْبَـا

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٤).
(٢) التبريح:مِنْ بَرَح به الأمرُ: إذا أجهده وآذاه.
(٣) انهمل الدمع: سال.
(٤) المحنة: بمعنى الامتحان والشدّة. وفي هذا احتمال التلويح إلى من يموتون من أجل عقيدة يعتقدونها.
(٥) الصَّبيب: المصبوب. والمقصود به هنا الماء.
(٦) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٥).

بِسَيْلٍ مُغْرِقٍ سَهْبًا وسَهْبَا ... حبابٌ فيه بالأفلاكِ يعبَا؟[1]

ويَنجح سعيُه دَهْرَ مُثَابِرِ ... بصونِ الذات عِمْلاقٌ يجاهِرْ

وصُنْ للقلبِ سُلطانًا وفقرًا ... فهذا البحرُ قد صان الجواهِرْ

قِوَي للذاتِ يومًا ما بَلَوْتَا ... وقَيْدًا بعد قيدٍ ما حَطَمْتَا

يدومُ العقلُ للإنسان قَيْدًا ... إذا في صدرِه القلبُ افتَقَدْتَا[2]

الشاهين[3]:

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى ... ثم ألْقَيْتُ كلَّ شيءٍ ورائي

ذلكَ العالمُ الذي زعموه ... ليس يقتاتُ غير حَبٍّ وماءِ

أنا نَجْلُ الصَّحراء والزُّهدُ ديني ... وهما في سجيَّتي ودمائي

أجْهَلُ الزَّهرَ والنَّسيم وما في ... لوعةِ العندليب عند المساء

ورجالُ البُستان تغري ولكنْ ... ليس تُغْري منشّأً في العَراء

أين مجدي إذا شقيتُ لجوع ... وأذلَّتْ حمامةٌ كبريائي

بافتراسي أصونُ عزَّة وجهي ... وأروِّي حماستي وإبائي

---

(١) الخصم: البحر. السهب: الأرض المنبسطة. والحباب: الفقاقيع التي تعلو الماء. والشاعر يريد ليقول: إن الأفلاك كلها لا تُساوي فقاعةً واحدة من إرادات القلب عالي الهمة وورادته.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٤٨٧).

(٣) الشاهين: نوع من الصقور، وهو الطَّيْر المختار عند إقبال؛ لأنه لا يبني لنفسه عُشًا يعني أنه زاهد، ويطير إلى الأعالي، وليس نجيلاً ويقنع بالزهيد، ولا يأكل مما يقنصه الآخرون.

كُلُّ طيرٍ له من الأرض عشٌّ وأنا ها هنا حليف مضائي

كيف يبني قلندر الطَّير عشًا وهو الفَرْدُ في رحابِ السَّماء [(١)]

النِّسْر والنَّملة:

قالت النَّملة للنِّسر الذي مرَّ يومًا ما على وادي النَّمْلْ

أنت ترعى في بساتين النُّجوم وأنا في شقوة العيش المُذِلْ

قال: لكن أنا لا أبحث عن مؤني مثلك في هذا التُّراب

لستُ ألقي نظرةً حتَّى ولا للسمواتِ التي فوق السَّحاب [(٢)]

ودَنِيُّ الهمّة الذي يخوض في الدين ويُجادل في الكتاب:

□ قال إقبال:

ألا ترثي لعُصفورٍ عن الطَّيران قد مُنعا

إذا استخفى وحاول أنْ يطيرَ لوَحْدِه وقعا

يحاولُ أن يكون فؤادُه بيتًا لجبريل

وليس له من الطِّيران غير القَال والقيلِ

هل العصفورُ بين الشَّوك كالعصفور في الجنَّة

بربك هذه حريَّةٌ في الفكر أم جِنَّه

فقل لمفكِّر حرٍّ أضلَّ الفكرُ وجدانَه

تعالى الله أن يلهمَ ما يُبْطِلُ قرآنه

---

(١) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٤٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٥٠).

وهـــل يهـــدم مجـــدَ الـــشَّعْب غـــير الفِكْـــرَة الحـــرَّه
وهـــذي الفكـــرة البلهـــاء ســـيِّدُها (أبـــو مـــرَّه)[1] [2]

الإيمان وعلو الهمّة:

منبـعُ الحـبِّ هـو الله العـلي ... هـو مـولى للبرايـا وَوَلي
فأضـيئوا الـنفس مـن إيمانهـا ... وانظـروا الآيـاتِ مـن إحـسانها
املؤوا الأنفس من نور اليقين ... وانظـروا إبـداعها في كـلِّ حـين
إنَّـما الإنـسان مـن لحـم ودم ... فيـه قلـبٌ كـسراج في ظلـم
ذلـك اللحـم إلى مـاءٍ وطـين ... ذلـك النُّـور لـربِّ العـالمين
فـإذا أطفـئ فيـه ذا الـضِّياء ... فهـو وحـشٌ همُّـه سـفكُ الـدِّماء
إنَّ هـذا الجـسمَ ذو وزنٍ وحـد ... وبهـذا القلـب كـونٌ لا يُحَـدّ
هالكٌ مَنْ عاشَ في ضيقِ الجسدْ ... منْ يعشْ في وسعة القلب خَلَدْ
أنت في جسمك مِنْ طينٍ وماء ... أو قـوام فيـه لحـمٌ ودمـاء
أنـت في الـروح حيـاةٌ وطـماح ... ورجـاءٌ وجهـادٌ وكفـاح
أنـت في قلبـك سرُّ العـالمين ... فيـه أمـرُ الله للخلـقِ مبـين
لا يحـدُّ القلـبَ في الآفـاق حـدّ ... إنَّـه يكـبرُ عـن وزنٍ وعـد
أيُّهـا الغافـلُ عـن سرِّ الإلـه ... انظـرنْ في القلـبِ يومًـا لـتراه

---

(١) أبو مرّة: هو إبليس.

(٢) «ديوان إقبال» (٢/ ٥٥٠).

ضـاق عـنْ أمـرِ الإلـه العـالمُ — وحـواه القلـب، هـذا الخـاتمُ
كلُّ ما أدركـتَ مـنْ معنـىً جميـل — كلُّ مـا أبـصرتَ مِـنْ أمـرٍ جليـل
كـلُّ مـا أوعـاهُ تـاريخُ البـشر — مـن جـلالٍ وجمـالٍ وعـبر
كـلُّ مـا سُـجِّلَ عـن أخيـاره — كـلُّ مـا حُـدِّث عـن أبـراره
هـو نـورُ الله في القلـب الـصغير — أو فُيوض الله في الكونِ الكبـير[1]
هو نبضُ القلـبِ في الـدُّنيا انتشر — هـو خفـقُ القلـب يرمـي بالـشرر
إنَّـما الإيـمان بالـدُّنيا يـدور — فهـو نـار في دجاهـا وهـو نـور
فـاجعلوا مِنْـهُ تباشـيرَ المنـى — واملـؤوا الآفـاقَ منـه بالـسَّنا
ارفعـوا الأنفـسَ فيـه صـاعده — ارفعوهـا عـن معـانٍ خامـده
عـن متـاع وطعـام وشراب — ومعـانٍ كلُّهـا نبـتُ الـتُّراب
قيمـة الإنـسان قلـبٌ لِلْعُـلى — لا ربـاشٌ ومتـاعٌ للـبلى
كـلُّ سـاع قَـدْرُه بغيتُـه — وزنُـه بـين الـورى مَنْبَتُـهُ
أيُّهـا القـانع دودًا في تـراب — حلِّقَـنْ في جوِّهـا مثـل العُقـاب
أيُّهـا الـسادرُ في لهـوٍ وَدَدْ — مـنْ لهـذا الكـونِ في يـوم وغَـد
أنقذوا الإنـسان مـن هـذا الـرَّدى — أبصر الإنسان يا قـومي هـوى[2]

---

(١) الكون الكبير: هو القلب.

(٢) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٢- ٣٦٣).

أيها المسلم:

أيُّهـا المسلمُ يـا مـنْ خُلقـا	ليكـونَ الحـقُّ فيـه خُلُقـا
انهضنْ يا صاح بالعبءِ الثَّقيل	أنـت في الأرض عـن الله وكيـل
قـد قـضى الخـلَّاق بـالأمر إليـك	قـسم الأرزاق يومًـا بيـديك
سـطِّرنْ بـالحقِّ في هـذي الـبلاد	واحكمنْ بالعـدلِ مـا بـينَ العبـاد
أنقـذِ الإنـسان مـن هـذا الـشَّقاء	وأزل مـن أرضـنا هـذا العنـاء
امـلأْ الأرض بحـبٍّ وصـفاء	وسـلام ووداد وإخـاء
واحكمـنْ بـالحقِّ في أرجائهـا	وانْعَمَـنْ بـالأمن في أفيائهـا
وامـلأ الآفـاقَ حقًّـا وسَـنَا	وامـلأنْ بـالخيرِ آفـاقَ الـدُّنا
علِّـم الإيـمان والحـقَّ العـلي	علِّـم الإيثـارَ والزهـدَ الغنـي
زهـدَ مَـنْ يملـك آلاف الألـوف	وهـي في عينيـه لغـوٌ وزيـوف
قولـةٌ في الحـقِّ أعـلى عنـده	فعلـةٌ في الخـير أغـلى عنـده
كـلُّ مـا يمـسكُ منهـا درهـمُ	كـلُّ مـا ينفـق منهـا مغـنمُ
هـذهِ الأمـوالُ جمعًـا يـا بنـي	لا تـساوي ذلـةَ الحـرِّ الأبي
إنَّهـا اللعبـةُ في عـينِ الحكـيم	إنَّهـا الـدِّرْهمْ في كـفِّ الكـريم
جَـوهرًا يحـسبُ مـن لا يعـرفُ	وهـي عنـد العـارفين الـصَّدَفُ
إنَّـما الجـوهر قلـبٌ قـد أضـاء	وَسِـعَ الأرضَ جميعًـا والـسَّماء
لا يعـافُ الحـرُّ أكـلَ الطَّيبـات	آخـذًا في الأرض كـلَّ الثَّمـرات
ربَّـما اسـتولى عـلى أعـدادها	ربَّـما أوفى عـلى آمادهـا

آخـــذًا أو معطيًـــا لا يَـــشْرَهُ رابحًـــا أو خـــاسرًا لا يأبـــه

عبَّـــد الـــدُّنيا ولا تـــستعبده فاكهًـــا في نعمـــةٍ ولا تفـــسده

حـــائمًا للـــرِّزقِ صـــقرًا طـــائرا لا يُريـــغُ الـــرزَّاق فيهـــا صـــاغرا

فـــإذا شِـــيْمَ هوانًـــا فزعـــا مثـــل مـــا يَفْـــزعُ مـــن قـــد لُـــسعا

واســـتمدَّ العـــزَّ مـــنْ همَّتـــه واســـتثار النـــار مِـــنْ عَزْمَتِـــه

فـــإذا المـــاءُ لهيـــبٌ ودُخـــان وإذا الحلـــمُ ضرابٌ وطِعـــان

وإذا سُـــدَّ عليـــه كـــلُّ بـــاب فـــارقَ الـــدُّنيا إلى غـــير إيـــاب

إنَّ مـــوتَ الحـــرِّ في ذلتـــه وحيـــاةَ الحـــرِّ في عزَّتـــه

فكُـــنِ الـــصَّقْر الأبيَّ العاليـــا وكُـــنِ الحُـــرَّ الكـــريمَ الآبيـــا[1]

الهَمَّام.. عالي الهِمَّة:

بـــيَّنَ الهَـــمَّامُ مـــنْ سرِّ الحيـــاه وأزالَ الـــسِّتر عـــن نـــورِ النجـــاه

بَـــيَّن الهَـــمَّامُ مـــنْ ســـيرِ الزَّمـــان وأفاضَ النُّـــور مـــن هـــدي القُـــران

بـــثَّ في الـــنفس كلامًـــا مـــنْ شَرر منه عشقُ الحـــقِّ في القلـــبِ اســـتعر

فتقـــتْ نظراتُـــه كـــلَّ حجـــاب فرأى الدَّوحـــة مـــن تحـــت الـــتُّراب

ضـــاقتِ الآفـــاقُ عـــن نظراتـــه ضـــجَّت الأفـــلاك مـــن أنَّاتـــه

وَصَـــلَتْهُ نفخـــةٌ مـــنْ ربِّـــه فـــتجلَّى نـــورُه في قلبـــه

قـــد ثـــوى في قلبـــه كـــلُّ الجهـــات واســـتوى في فكـــره مـــاضٍ وآت

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٣٦٤، ٣٦٥).

سَـــال في ألحانــــه دمــــعٌ ودمُ والتقــى المـاءُ عليهـا والـضَّرم

يـا بَـرودَ القلـب خـذْ مِـنْ نـارِه فالحيـــاةُ الحـــقُّ في أشــــعاره

يا مواتَ القلب خذْ من رجعه [1] يـا جمـودَ العـين خـذْ مـن دَمْعـه

يـا صـغيرَ الهـمِّ خُـذْ مـن همَّتـه يـا كليـلَ العَـزْم خُـذْ مـن عزمتـه

يــا أســيرَ اليــأس خــذْ آمالــه في دجــى اليــأس أثِــرْ أقوالــه

أيُّهــا المـسلم صـعد في الـسماء وابلغــنْ في جوِّهــا أعــلى العــلاء

وخـــذِ الإقـــدامَ منـــه والطِّـــماح وجناحًــا قــاهرًا هُــوجَ الرِّيــاح

ذا ضياء الدِّين منْ خَلْفِ العُصور قــد أتــى في عزمــه نــارٌ ونــور

إنَّـــه الإســـلام في عزَّتـــه إنَّـــه الإيـــمانُ في قوَّتـــه

أثـــر القـــرآن في أنـــواره وضـــيا [2] الفرقـــانُ في أسراره

□ ولله در القائل:

ومــا الـصحراء تحـويني ترابـا ولا الــدأماء يتطــويني عُبابــا

زجـاجي منـه ترتعـد الـصُّخور وأفكـــاري بـــلا شـــطٍّ بُحـــورُ

ولي في القلـــب وهّـــاجُ الـــسَّعير دجــاك أنِــرْ بمــصباحي المنــيرُ

(١) الرَّجع: المطر.

(٢) ضيا: أي ضياء.

□ ولله درّ القائل:

عُلُـوُّ الهمّـة المقـصودُ فـاعرف كجبريـل الأمـين إذًا فَرَفْـرفْ

ومن ريح القميص [(١)] فنل نـصيبًا تنـسَّمَ مـن ضـفافِ النيـل طِيبـا

وذاتـك نـيِّرَيْن [(٢)] بهـا تـصيدُ ومـن تـدبيرها لهـا القيـودُ

لهيـب العـزم في دنيـاك أضرِمْ بغـزوك مـا تـرى أو غـاب قـوِّمْ

□ والقائل:

أيهـا المـسلم يـا نـورَ الـسَّماء كيـف لا تـشرقُ في أرض البـشرْ

أنـت سـلطانُ الليـالي لا كـما قالـتِ الحمقـى أسرٌ للقَـدَرْ

إنَّ أصـنامي التـي في مَعْبَـدِي مثلُهـا تلـكَ التـي في معبـدِكْ

لم تحطمْهـا يـدٌ غـيرُ يـدي فترفَّـعْ عـن يـدٍ غـير يـدك

ذلـك الأعمـى الـذي تَقْـصِدُه مـا لـه علـمٌ بـها في قلبـكَ

هـو لا يبـصرُ حتَّـى نَفْـسَه وتـراه تحفـةً مـن ربِّـك

□ وقائل:

رجـلُ البـصيرةِ لا يـذوقُ هوانـا سِـيَّان عبـدًا كـانَ أو سـلطانا

يختـالُ والـدرِّع الوحيـدةُ زهـدُه لا يـشتكي زمنًـا ولا شـيطانا

---

(١) قال تعالى في سورة يوسف: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف، فارتدَّ إليه بصره. الريح: الرائحة. تنسم: شمَّ.

(٢) المراد بالنيرين الشمس والقمر.

□ والقائل:

عجبًا لأوربَّة ... بالنَّهر تُغرينا

وبذاتِ لجَّته ... ضاعتْ معانينا

تُخْفي بهدأتها ... تيَّارَها الماحي

عصفتْ فما تركتْ ... وَكْرًا لتِمْساح

رأيُ العبيد بها ... لا نطمئنُّ له

وتقرِّرُ الأحرارُ ... الرأي مجمله

لا شيءَ يُقْنِعُنا ... إلا اجتهادٌ وفي

يأتي بلؤلؤةٍ ... من ذلك الصَّدَفِ

ذاكَ الزُّجاج إذا ... عَجَنْتُه في الكِير

فأنا أسوِّيه ... صخرًا بإكسيري

لي في الجهاد يدٌ ... فرعونُ يخشاها

بيضاءُ ما مُدَّت ... إلَّا لمولاها

أتظنُّ أوربة ... أنْ ينتهي نَفَسي

أو تنطفي ناري ... في قشِّها اليَبِس

ناري وقد أذكتْ ... ما اخْضَرَّ من قصبي

لا شيءَ يمنعُها ... من ذلك الحَطَب

متفاهمٌ قلبي ... لا يعرف اليأْسَا

الحبُّ عَلَّمَهُ ... أن يُرْغِم النَّفْسا

مــــن عُـــسْرِ عَالَمِــــه يـــستخرج اليُـــسْرَا
لا قَـــــصْرَ قيـــصره يرجـــو ولا كِـــسْرَى
مُتعلِّـــــقٌ أَبـــدًا بركـــــاب ســـيِّدِهِ
لا غــــزو للأقــــمارْ يَـــسْقُطْنَ في يـــدِهِ
هـــو ســـيِّد الأشـــياء هـــو خـــاتمُ الرُّسُـــل
هـــو شـــعلةُ الـــسَّارِي في هــــذه الـــسُّبُل

□ وما أجمل قول القائل:

إذا خُــضْتَ معركـــةً فلْـــتكنْ كموســـى بخطوتـــه الـــضَّاربهْ
فَمِـنْ ﴿لَا تَخَفْ﴾ شعلةٌ لم تـزل تـــصاعدُ في الأجمـــة اللَّاهبـــهْ

□ ولله درَّه إذْ يقول:

أتطلـــبُ جيفـــةً الغربـــانِ هاتيـــكَ الـــشَّواهينُ
إذا أخفْـــتْ مخالبهـــا فأعينُهـــا ســـكاكينُ

□ وما أحلى قوله:

لـستُ أخفيـك أنَّنـي لم يَـرُقْ لي ذلكَ العيشُ في طُقوسِ الـصَّوامع
لا يـصيد العنقـاءَ صيَّاد سـوءٍ مُلِئَـتْ نفـسُه بـذلِّ المطـامع
طِرْتَ أم غُـصْت في سماءٍ وبحرٍ أم تراجعـتَ عـنهما وجَبُنْـتَ
لـيس يـدعو إلى الرِّثـاء وجـودٌ كـالوجودِ الـذي تعانيـه أنـتَ
وســواءٌ، فــلا تقـل عـربيٌّ كنـتَ أو لم تكـنْ فلـيس يُفيـدُ
ســترى الــذكرَ أجنبيًّـا إذا لمْ يَـكُ للـذِّكْرِ في الفـؤاد شـهيدُ

□ وقوله:

النخلـة الـشمَّاءُ أختُـك كُوِّنـتْ ... ممـا تبقَّـى مـن بقايـا طينتِـكْ

أتطوفُ في الحاناتِ تستقي كأسَها ... وتطـوفُ مخنوقًـا بعلمانيتـكْ

مـا في مدارسِـك الَّتـي ترتادُهـا ... إلَّا بحـوثُ مغفَّـل وبليـد

سرُّ الدِّراسـةِ في فـؤادك كـامنٌ ... لو كنتَ تُتْقِنُ صَرْخَةَ التَّوحيد

لم تبـق يـا مـسكينُ إلا فرصـةٌ ... لـك في اسـتعادة سِرِّكَ المفقـودِ

اطلبْ علومَ القلب مـن أستاذها ... واجهـدْ لنيـل مقامِـكَ المحمـودِ

□ وقوله:

رأيـتُ فلاسـفةً بـالألوف ... رؤوسـهُمُ تحـتَ أطمارهـا

وذو الـوحي يَرْفَـع مـنْ رأسـه ... ويكـشِفُ أوهـام أفكارِهـا

□ وقوله:

شـبابٌ قعـودٌ رقـودٌ نيـامْ ... لعجـزِ الأمـيرِ وفـوضى الجنـود

فـوا أسـفًا كيـفَ هـذي الـسِّهام ... تطـيشُ بـلا هَـدَفٍ في الوجـود

يقولـون بحـرٌ عميـقٌ عميـقُ ... ومـا أضـيعَ البحـرَ مـا أضـيعَهْ

بحثـتُ بـه موجـةً موجـةً ... وقلَّبـتُ قوقعـةً قوقعـهْ

أمـا آنَ تهجـرُ أصـنامَهم ... أمـا آن تخـرجُ مـن قُمْقُمِـكْ

وغايـةُ أصـنامهم أنَّهـا ... تزخْـرف هيكلَهـا مِـنْ دَمِـكْ

□ ولله درُّه حين يقول:

أنـا ابـنُ المدينـة وابـنُ النَّجـفْ ... غبارُهمـا كـان في مُقلتـي

غبارُهمـــا قطـــرةٌ للعُيـــون　　　وأنفـــعُ طـــبٍّ لـــذي علَّـــةِ
مقـــيمٌ بـــرغم ريـــاح القُـــرون　　　ومـــا كـــان مـــن مـــستبدٍّ عتـــي

قلق القلب عنوان علو همته:

▢ قلقُ القلب وتطلُّعُه للكمال، عنوانُ علو همته، ولله ما أجمل قول القائل:

قلـــقُ القلـــب غـــذاءٌ　　　وعطـــاءٌ حيـــويُّ
إنَّ قلبًـــا لـــيس فيـــه　　　قلـــقٌ، قلـــبٌ شـــقيُّ

▢ وقوله:

لـــستَ لهـــذي الأرضِ والـــسَّماءِ　　　وإنَّـــما الـــسَّماءُ والأرضُ لـــكَ
ولـــستُ موضـــوعَهُما وإنَّـــما　　　هـــذان جانبـــانِ مـــنْ موضـــوعِكَ

▢ وقوله:

قلبُك الشَّمسُ فاقْبِس النُّورَ منه　　　كـــلُّ مـــا ترتجيـــهِ نفسُك عنـــدكْ
كلُّ شيءٍ سـواك -أنـت- سرابٌ　　　شَـــهِدَ اللهُ أنَّـــك الحـــقُّ وَحْـــدَك

أرضنا يا عالي الهمّة تهفو لطهرك:

أرضُـــنا هـــذه لطُهْـــرِك تهفـــو　　　أنـــتَ برهانهـــا وأنـــتَ هُـــداها
قلبُـــك المطمـــئنُّ قبـــضةُ نـــورٍ　　　مَنَحـــتْ أعْـــيُنَ الـــسَّماء مـــداها
عـــن يـــدِ الله طِـــرْتَ لا عـــن غبـــاءٍ　　　أنـــتَ شـــاهينُه وأنـــتَ رســـولُه
ولـــكَ الحُـــورُ والملائـــكُ صَـــيْدٌ　　　ذاك ديـــنٌ ولـــيس شـــعرًا أقولُـــه
أُتـــرى مـــا لِلْمُـــسْلمين نـــصيبٌ　　　مـــن جنـــونِ الحـــبِّ الَّـــذي أطلقـــوه

دمُهم كان للشُّعوب منارًا ثمَّ هُمْ في ظلامهم أهرقوه
ذاك أنَّ الضُّلوعَ خارتْ قُواها لم يعد بينها لهيبٌ يصولُ
سجداتٌ رتيبةٌ في خمولٍ وصفوفٌ مُعوجةٌ وذُهولُ
أيُّها المسلمُ المثابرُ يرجو ثوبَ تقواه كنْ نسيجَ حياتِك
كنْ وحيدًا ووحِّدِ الله واكشِفْ سحْرَ ألواننا بقوَّة ذاتِك
كُنْ كما الموجُ كلَّ حينٍ تراهُ يدرسُ الشاطئَ الَّذي يبتغيه
انتزعْ من يديه ثوبَك وارجِعْ لا تغرنَّك الإقامةُ فيه

المؤمن عالي الهِمَّة:

□ يقول إقبال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المسلم حيٌّ خالد، لا يزول، ولا ينقرض؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم، وموسى، وجاء بها النبيون، وقد قضى الله بخلودها وبقائها، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة، وتكفَّلت بتبليغ هذه الرسالة!».

□ ويقول: «إن المسلم لا تعرفُ أرضُه الحدود، ولا يعرفُ أُفقُهُ الثغور، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب. فليست دجلة في العراق، ودانوب في أوربة، والنيل في مصر، إلَّا موجةً صغيرةً في بحره الواسع ومحيطه الأعظم، إنَّ له عصورًا في التاريخ لا يقضى منها العجب، وله حكاياتٌ ومواقفُ في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب، هو الذي أمر العصر العتيق -العصر الجاهلي- بالرَّحيل، وافتتح العصر الجديد، إنَّه إمام رجال الحبِّ والعاطفة، وفارس ميدان الإيمان والحنان، لسانُه لبنٌ وعسل، وسيفه علقمٌ وحنظل، يعيش في ميدان

الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعًا بالتَّوحيد، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله».

أمام مسجد قرطبة.. وذكرى أُولى الهِمَّة العالية:

▫ قال إقبال حين وقف على مسجد قرطبة وناجاه: «لقد كشفتَ أيها المسجد العظيم! عن سرِّ المؤمن، ومثَّلتَه في العالم، وصورتَ ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهارَه، والرقةَ التي يَمضي فيها ليله، صوَّرت للعالم مقامه الرفيع، وتفكيره السَّامي، ومسراتِه وأشواقَه، وتواضعَه ودلالَه».

▫ ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة، فيصف سموَّه، وأخلاقه، وسيرته في العالم، فيقول: «إنَّ يد المؤمن هي جارحةُ القدرة الإلهية، فهي غلَّابةٌ، فتَّاحةٌ، قاهرةٌ، ناصرةٌ، أصله من تراب، وفطرته من نور، عبدٌ تخلَّق بأخلاق الله، واستغنى عن العالمين آماله ومطامعه قليلةٌ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ جليلة، ألقي عليه الحب، وكسي المهابة والجمال، دقيقٌ رقيقٌ في الحديث، قويٌّ نشيطٌ في الكفاح، نزيهٌ بريٌّ في السلم والحرب، إنَّ إيمانه هو النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم، وكل ما عداه وهمٌ وطلسمٌ ومجازٌ، إنَّه الغاية التي يصل إليها العقل، ولبُّ لباب الإيمان والحبِّ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها».

▫ ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد، فيخاطبه في إجلال وإكبار، ويقول: «يا مثابةَ هواة الفنِّ! ويا مقصدَ روَّاد الجمال! ويا مجد الدين الإسلامي! لقد سمت بك أرض الأندلس، وتقدَّست في أعين المسلمين، إنَّك فريدٌ في الفنِّ والجمال، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن، أين لنا أولئك الرجال، هؤلاء الفرسان العرب، أصحاب الخلق العظيم،

وأصحاب الصدق واليقين، الذين برهنت حكومتهم على أنَّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادة، وليست حكمًا ولا ملكًا، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربي الشرق والغرب، وكانوا أصحابَ عقولٍ حصيفةٍ وبصيرة نافذة، يوم كانت أوربة تتسكع في الجهل المطبق، والظلام الحالك، والذين لا تزال في الشعب الإسباني».

□ ولله درُّه حين يقول: «إنَّ كلَّ مأثرة وكلَّ إنتاجٍ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع، وكلُّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدْمَ له القلب، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر، ضرب من العبث والتسلية، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار».

ويبكي رحيل عُلاة الهمم عن «أسبانيا»:

□ فيقول في قصيدته «أسبانيا» التي كتبها في أسبانيا ساعة مغادرتها:

صوتُ المنائر في نسيمِك يَرْقُدُ وصداه في أرواحنا يتردَّدُ

يا توءَمَ الحرم الشريف تطوَّفَتْ بكِ رُكَّعٌ من عاكفينَ وسُجَّدُ

سيماكِ من أثرِ السُّجود على الثَّرى طربٌ يفوحُ ونضْرةٌ تتجدَّد

***

تحكي النجومُ أسنةً لرماحهم بإزائها ليلٌ يقومُ ويَقْعُدُ

ملؤوا وهادَك بالخيام ولم تزلْ أوتادُها بنسيمهم تتأوَّدُ

إنْ تسألِ الحسناءُ عن حُنَّائهم فتَخيبُ يُنْصِفُها دمي المتورِّدُ

يا طالما سُفِكتْ هناكَ دماؤُنا ظُلمًا ونحنُ المشفقونَ العُوَّدُ

***

مـا كـان صـقرُ قـريش غـيرَ موحِّـدٍ عجبًـا أمـا في المـسلمين موحِّـدُ

خَمَـدَتْ حقيقتُنـا وزالَ لهيبنَـا وبريـقُ قرطبـةَ الـشَّريدُ مخلَّـدُ

ووقفـتُ لا نـومي خَمَـدْتُ ولا الـسُّرى أتكبَّـد الجـرح الـذي أتكبَّـدُ

عانيـتُ مـشهدهم وقُلْـتُ وقيـل لي سِـيَّان قـولٌ في العـزاء ومَـشْهدُ

ستُهتك الأسـتارُ عـن سـيئاتنا وتُبـاحُ أسرارٌ لنـا وتُبـدَّدُ

ويكـونُ أول مـن يقـومُ بهتكهـا للنـاس أولَ مـصلح يتحمَّـدُ[1]

□ ويقول في قصيدة له على نهج أبيات عبد الرحمن الأول عد مجيئه إلى الأندلس.. يقول:

وأعْجَبُ ما في الكونِ غربـةُ مثلنـا — وفي الشَّام من أمثالنـا عَـدَدُ الرَّمـلِ

وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى — زمانًا غريب الوجه مختلف الشَّكل

وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُـرى — مضيتُ بـه عريـانَ مُتَـشِقًا نـصلي

وما منْ حياةٍ للَّـذي أنِـفَ الـرَّدى — وهل يقدح الزِّند الشرارَ من الوحل

إذا شـامَ طـرفي الـبرقَ زادَ تألُّقَـا — وحنَّ بذكرِ الشَّام للأعـين النُّجْـلِ

ومـا ضرَّنـا مُلْـكٌ تركنـاه خلفنـا — فكـلُّ بـلادِ الله ملـكُ ذوي العَـدْلِ

سـنبني كـما كُنَّـا بنينـا لغيرنـا — وحاشا لأهلِ الجُوْدِ توصمُ بالبُخل

إذا نَـضَبَتْ أجـسادُنا مـنْ دمائِنـا — فمنزلُنـا ريَّـانُ مـن غَـدَقِ البَـذْلِ

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٥).

سَتذكُرُنا الدُّنيا وتنـدُبنا الـورى وتطْلُب من آثارنـا كعبـةَ الفـضلِ
يقال هنا صلَّتْ وضجَّت قلـوبُهم هنا انتبذَتْ أرواحَها رسلُ النَّخْلِ[1]

دعاء عالي الهمة طارق بقلم «إقبال»:

□ في ديوانه «جناح جبريل» صوَّر إقبالُ بأسلوبه الأدبي «دعاء» طارقَ ابن زياد عند خوضه المعركةَ لفتح الأندلس فقال: «قال طارق: اللهم! إن هؤلاء الفتيانِ الذين خرجوا جهادًا في سبيلك، وابتغاءَ مرضاتك، رجالٌ غامضون مجهولون لا يعرف سرَّهم وحقيقتَهم غيرُك، لقد منحتهم طموحًا وعلوَّ همَّة، لا يرضَون معه إلَّا أن يكونوا سادةَ العالم، يحكمون الدنيا كلها بحُكمك، ويُنفِّذون فيها أمرك، لا يعلوهم غيرُك، أبطال مغاوير، تنفلقُ بهيبتهم البحار، وتنضوي لصولتهم الجبال، لقد ذاقوا لذةَ الإيمان والحب، حتى استغنَوا بها عن العالَم والمادة، وهانت عليهم الدنيا وزخارفُها وشهواتها، وذلك شأنُ الحب إذا خالطت بشاشتُه القلوب، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنينُ إلا الشهادة، التي هي وطرُ المؤمن العزيز، وهمُّه الوحيد، لا يفكِّرون في الغنائم ولا في فتح البلاد، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد.

إن العالَمَ قد وقف على شفا حفرةٍ من النار، لا يمنعُه من التردِّي في الهاوية إلَّا أن يبذل العربُ دماءهم ونفوسهم بسخاءٍ وشجاعة، إنَّ العالم بحاجةٍ إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ، فلا يروى غليلَه، ولا يشفى عليلَه إلا الدمُ العربي الطاهر، ها إن الأزهارَ والورود في الغابةِ في انتظار أن تُسقَى بهذا الدم القاني، فترفُل في حُلَّتِه، وقد قدِمنا لنزرع نفوسنا، ونريقَ دماءنا في

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٤).

هذه الأرض النائية، لتخصب الإنسانيةَ بعد جدب طويل، ويحل الربيع بعد انتظار شاقٍّ طال أمده.

لقد أكرمتَ يا رب رعاةَ الإبلِ وسكان الوبر -العرب- بنِعَمٍ فريدة لم يشركهم فيها أحد، لقد أفردتهم بعِلْمٍ جديد، وإيمانٍ جديد، وشعارٍ جديد، هو: أذان الصبح، فقد أفلستِ الأممُ من العلم الصحيح، والإيمان القوي، والذوق الرفيع، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد، على حين غفلةٍ من الناس، أما العرب، فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم، وجدَّة إيمانهم، وسلامة ذوْقهم، ودَوِيِّ آذانهم في السكون المخيِّم على العالم، والظلام الحالك، لقد كانت الحياةُ فَقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلة، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضةِ بالإيمان والحنان، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة، وكَتَلَفٍ للنفس الإنسانية، إنهم يروْن فيه فتحًا جديدًا، وعيشًا جديدًا.

أَعِدْ يا رب! إلى هذه الأمة المؤمنة الحِمَيَّة الإيمانية والغضبة المؤمنة، التي تجلَّت في دعاء نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح] حتى تصبحَ صاعقةً على عالم الكفر والفساد، وأَخْلِق فيها المطامح البعيدة، والعزائم القوية الشديدة، واقذف في قلوب الناس رعبتها، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف»[1].

□ ثم نظمها إقبال شعرًا فقال:

هـــذي الكُـــماةُ عبـــادُك الأخيـــارُ   حملـــوا عَنَـــاءَ العـــالمين وســـارُوا

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٧- ٤٨٨).

أصحابُ سِرِّكَ والسِّيادةُ طبعهم والنُّورُ في نظراتهم والنَّارُ
فعلتْ كموسى في البحار عِصِيُّهم وتراجعت لِخُطَاهُمُ الأنهارُ
البَحْرُ حَبَّةُ خردَلٍ في كَفِّهم والعِشْقُ في أرواحهم إعْصَارُ
عزفوا عن الدَّارَيْنِ إلَّا أنَّهم عَلَمٌ على الدَّارين لا ينهار
نيلُ الشَّهادَةِ للموحِّدِ مَطمَحٌ وإذا تقحَّم فالجراحُ غُبارُ
لا سَبْيَ غانيةٍ وسَلْبَ خزانةٍ ومطامحُ الهممِ الكبارِ كِبارُ
كلُّ العبادِ على اختلافِ عروقِهم ترجو رجاءَ شقائقِ النُّعمانِ
ترجو من العربيِّ لونَ دمائِه وتضجُّ ليلَ نهارَ في البستانِ
ربَّاهُ أنت بَعَثْتَ من صحرائهم سكَّانها وجعلتهم أفذاذا
وملأتَ صدرَ الصبح من آهاتهم وجَعَلْتَ أعرابيَّهم أُسْتَاذَا
طوتِ الحياةُ الدهر تنشد طُلْبَه عزَّتْ وطلبتُها مذاقُ النَّار
وبروحهم عثرتْ عليها بعدما كلَّت من التَّرحال والتِّسيارِ
الموتُ ليس نهايةً في عينهم هو للبصيرة بَابُها المفتوحُ
ربَّاهُ! فابعث مسلمين أعِزَّةً يتوسلون كما توسَّلَ نوحُ
لتغيُّرات العَصْر من ثوراته وهمٌ وأنت الفرد لا تتغير
رباه! أنت هو الحقيقة كلُّها والناس منها موسِرٌ أو مُعْسِرُ
الدُّهْرُ ملك يديك ليس لأهله إلا ظنونُ الواهم المتقَوِّلُ

يتنــازعون عــلى تفهُّــم عــالمٍ سكرانَ من ماضٍ ومن مستقبلِ[(١)]

عالي الهمّة:

عــذبُ الكَلِـمَاتِ خفيــفُ الــرُّوح رقيــقُ القلــب مُــسَهَّدُهُ
أبــديُّ الحــبِّ نقــيُّ الحَــرْبِ مــصونُ العِــرْضِ مهنَّــدُهُ
وعـــلى يـــدهِ لله يـــدٌ بلطيـــفِ القُـــدْرةِ تَعْــضُدهُ
العـــالَمُ قَـــصْرُ خلافتِـــهِ وســـماءُ العـــالمِ معبَـــدُهُ
سِرُّ الكــــوْنيْن بنظرتـــهِ وعـــن الكــــونيْن تجـــرُّدُه
وسرابُ العــصْرِ بنــور الــدِّين ونــارُ الحــبِّ يبــدِّدهُ
هـــو أوَّلُ سرٍّ في الـــدنيا ورجـــاءُ الكـــونِ ومقـــصِدُهُ[(٢)]

نصيحة:

□ قال نسرٌ عجوز لبازٍ فتى:

لا تقــلْ أصــلي وفــصلي أبــدًا قيمـــةُ الـــشَّاهينِ في أخلاقِـــهِ
إنَّــما الــشَّاهين مـــن يَحْرُقُــه دمُـــهُ الشَّخـــصيُّ في أعماقِـــهِ
قـــسوةُ التَّـــدريب روحُ الـــسُّؤددِ لا تـــضيِّعْه ســـديّ هـــذا الكـــلامْ
ســـترى قيمتَـــه يـــا ولـــدي! حـــين تـــنقضُّ عـــلى فَـــرْخ الحـــمامْ
مـــا أرينـــا فرحـــةً أمتـــعُ مـــن فرحـــةِ المنقضِّ مـــن افـــقِ الـــسَّماء
فـــــرحٌ والله لا يعدلـــــه فـــرحٌ، حتـــى ولا ســـفكُ الـــدِّماء!

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٤٨٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٧٩).

□ قال إقبال:

عظمةُ الشَّاهين وشوكتُه توجدُ في طيرانِ الدَّرَّاج

والصَّيادُ في حيرةٍ شاهينٌ هذا أم درَّاج

تلاطَمَتْ أفكارُ كلِّ قوم

فاليومَ مُظْهرٌ لغدِ القيامةِ في الشَّرق

الميِّتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُوْرِ إسرافيل

لمطالبِ الفطرة![1]

□ وقال:

إذا اعتقدتَ أنَّ هذا القلبَ قطرةٌ منْ دمٍ فَهُوَ كذلك

فقلبُ الإنسان إنَّما هو -فقط- جذْبةٌ عالية

لا يُعْجبُه دوران القمر والنجوم

فهو الذي يخطِّطُ سَحَرَهُ ومساءه

لا يمكنُ أن يَبْرُدَ ذلك التُّرابُ الأصيلُ

الذي تَكْمُنُ في ضمير ترابه نارُ چنار[2]،[3]

«لو تأخذُ شرارةً من نار القلب

فإنَّك تستطيعُ أن تجعلها شمسًا تحت الفَلَكِ»[4]

---

(١) «ديوان إقبال» (١/ ٥٣٨).

(٢) چنار: شجرة ذات أوراق كثيرة، تشبه كف اليد، وتكون خضراء في الصيف، بينما تحمر جدًّا في الخريف وتصبغ في لون النار الملتهبة خاصةً في الأصل.

(٣) المصدر السابق (١/ ٥٣٨).

(٤) المصدر السابق (١/ ٥٣٩).

لا حَدّ للسموّ:

جسَّ الطبيبُ بقلبي من أكابِدُه — فقال: ويحك ما تخفيه منْ طلب

تطلعاتُك لا طاقاتُ تحملها — لكن (لكَ الحقُّ) لا تيأس من السَّبب

وما يُسمَّى صفاءَ الرُّوح أعرفه — وليس هذا الذي في قلبك اللَّجِب

هذا الدمُ القِرْمزيُّ اللونِ (نَضْرَتُه) — تدلُّ أنَّك لم تشربْ شرابَ غبي

يا ابن الإسلام! أين أنت مِن علو الهمَّة؟!

أيُّها الغافلُ عمَّا حُمِّلا — أنت في الكونين أعلى منزلا

افتحنْ عينًا وأُذنًا وفما — تُبْصرِ الحقَّ طريقًا مُعلَما

الخوف، والحُزن، واليأس أمَّهات الخبائث محبطات للهمة:

عُدَّة الموت قُنوطٌ مُحبطُ — والحياة الحقُّ أن «لا تقنطوا»[1]

إنما العيشُ رجاءٌ يُوصل — فقنوطُ الحيِّ سمٌّ يَقتل[2]

يأسك القبر إليه ترجع — إن تكنْ ألْوَنْدَ فهو المصرع[3]

رُبِّت الخيبة في أكنافه — ونما العجز على ألطافه[4]

آهِ منْ نوم الحياةِ الُمخدِر — إنَّه آيةُ ضعفِ العنصر

---

(١) مقتبس من القرآن ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

(٢) رجاء يوصل: دائم لا ينقطع.

(٣) ألْوَنْد: جبل عال مشرف على مدينة همذان يعني: إن تكن كجبل ألونَد في اليأس مصرعك.

(٤) الضمير اليأس في أكفانه تشب الخيبة، وبفضله ينمو العجز.

كحلُـه في العـين يُعمـي البـصرا ويـردُّ الـصُّبحَ لـيلًا أكـدرا[١]

نَفَـسٌ منـه سَـمومٌ للحيـاه كـلُّ ينبـوعٍ بـه جـفَّ ثـراه

وهـو للغـمِّ حليـفٌ واصـلُ إنَّـما الغـمُّ لحـيٍّ قاتـلُ

يـا سـجينَ الغـمِّ أبـصِر واسـمعِ من رسول الله «لا تحزن» وعـي[٢]

ذلـك النُّـصح سرى في قلبـه فغـدا الـصِّديقُ صـدِّيقًا بـهِ

إنـما المـسلم مثـلَ الكوكـبِ باسـمٌ في سـعيه والـدَّأبِ

حـرِّرِ الـنَّفس مـنَ الغـمِّ ودَعْ إنْ عرفـت الله، أغـلالَ الطَّمـعْ

قـوةُ الإيـمانِ تُحيـي فـاعلَمنْ وِرْدَ «لا خوفٌ عليهم» فـاقرأنْ[٣]

قلبه مـن «لا تخـف» قلـبٌ سليمْ حين يمضي نحو فرعونٍ كلـيمْ[٤]

خـوفُ غـيرِ الله قتْـلُ العمـلِ وهـو للأحيـاء قطـعُ الـسُّبُلِ

وبـه العـزمُ يخـاف الغِـيرا وتـرى المِقْـدَام منـه حَـذِرا

مـن نـما ذا البـذر يومًـا في ثَـراهْ حَرمتْـه مـن تجلِّيهـا الحيـاهْ

فهـو فـسلٌ وهـو شـادٍ يَغْـزِف يـد شُـلَّت وقلـبٌ يرجُـفُ

---

(١) الكحل يجلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلامًا.

(٢) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

(٣) إشارة إلى الآية:﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

(٤) إشارة إلى قصة موسى عليه السلام وفرعون وقول الخالق عن موسى عليه السلام ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين.

يسرِقُ الرِّجلَ قُوَى تسيارها ... يسلبُ الرأسَ قوى أفكارها

إنْ تجلَّى لعدوٍّ خوفكما ... هانَ كالوردِ، عليه قطفكما

سيفُه يزدادُ فتكًا في اليد ... عينُه فيك حسام لا يَدي [(١)]

غلَّنا الخوفُ، وكم في بحرنا ... منْ عُبابٍ مائجٍ في دهرنا

إن أبى النعمة يومًا مِزهرك ... فمن الخوف تندَّى وترك

فاعرْكِ الأذنَ يَثُر فيه الحداء ... ويهزَّ اللحنُ آفاقَ السَّماءَ

كلُّ شرٍّ في فؤادٍ يُضْمرُ ... أصله الخوفُ، إذا ما تُبصِرُ

منْ ديار الموت عينٌ قَدِما ... مثل ميم الموت قلبٌ أظلما [(٢)]

عينُه تلبيسُ آثارِ الحياه ... أذْنه تدليسُ أخبار الحياه [(٣)]

يُزهر الخِبُّ به والمَلِق ... ونفاقُ القلبِ منه يورقُ

ثوبه للزُّور سترٌ والريَبُ ... حِجْرُه الفتنةُ فيه والحَرَبْ

حُرِمَ الخوفُ طُموحَ الهمَّةِ ... فهو خدنٌ لحليف الذِّلَّةِ

كلُّ من يفقد سرَّ المصطفى ... يجدُ الإشراكَ في الخوْفِ اختفى

---

(١) لا يؤدي دية من قتله.

(٢) عين: جاسوس. والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمتة. فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت. وفي الأصل ميم مرك. ومرك: موت. فالميم في الأصل والترجمة.

(٣) تشوه مظاهر الحياة عينه. وتحرف أخبار الحياة أذنه.

أحبُّ.. وأحتقر[1]:

أحـــبُّ الجبـــالَ الـــشامخاتِ كأنَهـــا ... على جَبهـةِ الـدّنيا تـصولُ عواتيـا
تَضاحَكُ من عصفِ الرياح وزأرها ... وتحتـضنُ الـسيل الحَـرونَ المُعادِيـا
وتلهو عـنِ الزّلـزالِ وهْـوَ مُزَمْجَـرٌ ... يضجُّ ببطنِ الأرضِ غضبانَ واريـا
وأحتقرُ الكُثبـانَ تُرعـشها الـصبَّا ... ويفزعهـا الإعـصارُ إن مَـرَّ لاهيـا
وتحملُهـا الأريـاحُ أني توجَّهـت ... ألاعيـبَ في أسـفارها وألاهيـا

ﮩﮩﮩ

وَإنِّي لأهوى السيَّلَ يَـنْحَط مزبـدًا ... ويَـدفُقُ جَيَّاشًـا ويهـدِرُ صـاخبا
عَتيًـا عـلى الـسَّدِّ المنيـع يَدُكُّـهُ ... ويحملُـهُ نحـو الـسُّهول خَرائبـا
يمرّ على العُشْبِ الضعيفِ مُسامحًا ... ويلتقـفُ الـدّوح العَنيـدَ المغالبـا
وتحقـرُ عينـي جَـدولًا في خميلـةٍ ... يحـوِّل طفـلُ الحـيِّ مجراهُ لاعبـا
يكَـدِّرُهُ حتـى النـسيمُ ملاطفًـا ... ويُفزِعُـه حتى فـمُ الطفـلِ شـارِبا
أُحبُّ العُقابَ الجَوْنَ يختال في الذرا ... ويكب مـتنَ الجـوِّ جـذلانَ باسـما
ويخترقُ الريحَ العَـصوف لقـصدِه ... ولو حطَّمتْ من جانحيه القَوادمـا
يموتُ ولا يشكو الجراحَ ولا ترى ... لـه آكـلًا بـينَ الأنـامِ وهاضـمًا
وأحتقـر الورقـاءَ تـألفُ سـجنهَا ... وتبكي وما تلقى من الناسِ راحمًـا

---

(١) للشاعر الأستاذ أمجد الطرابلسي وزير التعليم السوري السابق – مجلة الأزهر- جمادي الأولى ١٤٢٧هـ (٧٨٠- ٧٨١).

وهل غيرُ ضَعفِ الوُرْقِ سوَّغَ حَبْسَها ... وصَـيَّرَ شـدوًا نوحَهـا والمآتمـا

ꕥꕥꕥ

وإني لأهـوى نحلـة تـدهَمُ الرُّبـا ... فتنهلُ مـن ثغـرِ الزهـورِ رحيقَهـا

ترشَّفُ من كأس الأقاحي صبوحَها ... ومن حُمـرةِ الـوردِ النَّـديِّ غَبوقَهـا

حَصَانٌ تروعُ العاشـقينَ بوخزهـا ... إذا مـا تمنَّـوا لـو يـذوقونَ ريقَهـا

وتحفـرُ عينـي نملـةً تـألفُ الـوَلي ... وتملأُ من بَخْسِ الفُتـاتِ خُروقَهـا

تـدِبُّ عـلى الأقـدام هُونًـا وذلـةً ... وتسلكُ من تحتِ النعـالِ طريقهـا

ꕥꕥꕥ

أحـبّ شَـموخَ الـدَّوحِ في ربواتـه ... يُجابـه هَـوْلَ العاصـفاتِ ويُثبُـتُ

أبيًا على حـربِ الأعاصـيرِ ظـافرًا ... تكُـرُّ جموعًـا حولَـهُ فتَـشَتَّتُ

وإنْ خـرَّ في الميـدانِ بعـد نـضالِها ... تراهـا عليـه نائحـات تُـصَوِّتُ

وَأحتقرُ الأعشاب تَحني رُءوسَـها ... فتسلَمُ مـن رَيْـبِ المنونِ وتُفْلـتُ

تدورُ مَعَ الإعصارِ حيـثُ يُـديرها ... ويلطِمُها هونًا فـترضى وتـسكُتُ

ꕥꕥꕥ

وإني لأهوى الليث يستعذبُ الطوى ... ويـأنفُ أن يُـدنى إلى جيفـةٍ يـدا

يسيرُ أَشَمَّ الأنف مـستكبرًا الخُطـا ... فترتجـفُ البيـداءُ إن راحَ أو غـدا

ويجَبْهُ وحشَ البيد في حُـرِّ وَجهْهـا ... ولا يَـدَّري أعـداءه مُتـصَيِّدا

وتحقـرُ عينـي ثُعلبانًـا مخادِعًـا ... جَبانًا خليع القلـبِ يغـدِرُ بالعِـدا

يُصيبُ فُضالاتِ السّباع وينثني ... ليشكرَ رزّاق العبيدِ ويَحْمَدا

❊❊❊

أحبّ الفتى يَفر الفلاةَ مُهَجّرًا ... فلا يشتكي أينًا ولا يتظلَّمُ

إذا لذَّعتهُ الشَّمْسُ سَدَّدَ وَجْهَهُ ... إليها حديدَ الطَّرف لا يتبرَّمُ

ويمشي على الرَّمضاء مُتئِدًا الخُطا ... جَليدًا، ونيرانُ الرمالِ تضرَّمُ

وأحقر نكسًا يستظَلّ بنيره ... ويخفضُ رأسًا وهو شاكٍ يدَمْدِم

تساورُهُ الأَشباحُ في القفرِ رَهْبةً ... فيَرْعَشُ منهُ القلبُ والطَّرفُ والفَمْ

❊❊❊

أحبُّ الفتى والغُلُّ يثقلُ عُنُقَهُ ... وسيفُ الأعادي بينَ عينيهِ مُشْهَرُ

يصيحُ بأعلى صوتِه ينكرُ الأذى ... ويضحكُ من بطشِ الطُّغاةِ ويَسْخَر

ويشمخُ بالأغلالِ رأسًا وإن غدتْ ... تَحُز ومن أنيابها الدَّمُ يَقْطُرُ

وأحتقرُ الأحرار يحنونَ رأسهم ... وليس عليهم سَيِّدٌ أو مُسَيْطِرُ

إذا كانَ قلبُ المرءِ عَبْدًا ورَأْيُه ... فَقُل لي -هُديتَ الخيرَ- ماذا تُحَرِّرُ

❊❊❊

يا ابن الإسلام.. أنت يوسفُ أعظم الأحلام.. أنت على طريق سلفلك العِظام.. ووارث الجنة.. والناظر في يوم المزيد إلى إلهك رب الأنام:

يا سليل المجد أين أنت من آبائك العظام وسلفك الكِرَام:

يـا سـليلَ المَجْـدِ مـاذا غَـيَّرَكْ؟	أنـتَ للمَجْـدِ وهـذا المَجْـدُ لَـكْ
كيـف تغفـو يـا فتـى التوحيـد هَـلْ	هَيَّـأَ الأَعـداءُ في الـدَّرب الـشَّرَكْ
أُمَّتـي قَـدْ عَلقَّـتْ فيـكَ المُنَـى	فاستَفِقْ وانْهَضْ وغادِرْ مَضْجَعكْ؟
عُـدْ إلى الـرَّحْمنِ في طُهْـرٍ تَجِـدْ	مَرْكَـبَ النَّـصْرِ إلى العَلْيَـا مَعَـكْ
وَتَـرَى الأبطَـالَ آسـاد الـشَّرَى	تـشتهي يَـوْمَ الفِـدَا أَنْ تَتْبَعَـكْ

صُمَّتْ أذُنُ الدنيا إنْ لم تسمع لنا فنحن ملكنا هذه الدنيا القرونا:

مَلَكْنَـا هـذه الـدُّنْيَا القُرُونـا	وأَخْـضَعَها جُـدُدٌ خالِـدُونا
وسَـطَّرْنَا صـحائفَ مِـن ضِـياءٍ	فـما نَـسِي الزَّمـانُ ولا نَـسِينا
حَمَلْناهــا سُـيوفًا لامعــاتٍ	غَـدَاةَ الـرَّوْع تَـأْبَى أَن تَلِينـا
إذا خَرَجَـتْ مـن الأَغْـمادِ يومًـا	رأيـتَ الهَـوْل والفـتحَ المُبينـا
وكُنَّـا حـين يَرْمِينـا أنـاسٌ	نُـؤَدِّبُهُمْ أبـاةً قَادِرِينـا
وكُنَّـا حـينَ يأخُـذُنا وَلِيٌّ	بطُغْيَـانٍ نَـدُوسُ لـه الجَبينـا
تَفـيضُ قلوبُنـا بالهـدِي بأْسًـا	فـما نُغْـضِي عـن الظُّلـمِ الجُفُونَـا
ومَـا فَتِـيءَ الزَّمـانُ يـدورُ حتَّـى	مَـضَى بالمجـدِ قـومٌ آخرونـا
وأصبحَ لا يُرَى في الرَّكْـبِ قـومي	وقـد عاشـوا أَئِمَّتَـه سـنينا

وآلمَنِــي وآلمَ كُــلَّ حُــرٍّ سُــؤالُ الــدَّهْرِ أيــنَ المسلمونا؟
تُــرَى هــلْ يَرْجِــعُ المــاضي فــإنِّي أذوبُ لــذلكَ المــاضي حنينــا
بَنَيْنَــا حِقْبَــةً في الأرضِ مُلْكًــا يُدَعِّمُــه شــبابٌ طامحونــا
شــبابٌ ذَلَّلُــوا ســبلَ المعــالي ومــا عَرَفــوا سوى الإسلامِ دِينا
تَعَهَّــدَهُم فــأَنْبَتَهُم نباتًــا كَــرِيمًا طــابَ في الــدُّنيا غُــصُونا
هُــمُ وَرَدُوا الحيــاضَ مبارَكــاتٍ يَــدُكُّونَ المعاقِــلَ والحُــصُونَا
وإِنْ جَــنَّ المَــسَاءَ فــلا تــراهمُ مِــن الإِشْــفَاقِ إلَّا ســاجِدِينا
شــبابٌ لَمْ تُحَطِّمْــه الليــالي ولَمْ يُــسْلِمِ إلى الخَــصْمِ العَرِينَــا
ولم تَــشْهَدْهُمُ الأقــداحُ يومًــا وقــد مَلَئُــوا نــوادِيهم مُجُونــا
ومــا عَرَفُــوا الأغــانِيَ مائعــاتٍ ولكِــنَّ العُــلا صِــيغت لحُونَــا
وقَــدْ دَانُــوا بــأَعْظَمِهِم نِــضَالًا وعِلْــمًا لا بــأَجْرَئِهِمْ عُيُونَــا
فَيَتَّحِــدُون أَخْلاقًــا عِــذَابًا ويَــأْتَلِفُون مجتمعًــا رَزِينــا
فــما عَــرَف الخلاعــةَ في بنــاتٍ ولا عَــرَف التخنُّــثَ في بَنينــا
ولم يَتَــشدَّقُوا بقــشورِ عِلْــمٍ ولم يتقلَّبُــوا في الملحــدينا
ولم يتبجَّحــوا في كــلِ أمــرٍ خطــيرٍ كــي يقــالَ مُثَقَّفُونــا
كــذلك أخــرجَ الإســلامُ قــومي شــبابًا مُخلِــصًا حُــرًّا أمينــا
وعَلَّمَــهُ الكرامــةَ كيــف تُبْنَــى فَيَــأْبَى أنْ يُقَيَّــدَ أَوْ يَهُونَــا

دَعُــوني مِــن أمــانٍ كاذبــاتٍ فَلَــمْ أَجِــدِ المُنَــى إلا ظُنُونَــا
وهــاتُوا لي مِــن الإيــمانِ نُــورًا وَقَــوُّوا بــين جَنْبَــيَّ اليَقينَــا
أَمُــدُّ يَــدِي فَــأَنْتَزِعُ الــرَّوَاسِي وَأَبْـنِ المَجْـدَ مؤتلِقًـا مَكِينَـا[1]

«رأيت البارحة شيخًا يدور حول المدينة، وقد حمل مِشعلا، كأنَّه يبحث عن شيءٍ. قلت له: يا سيدي! تبحث عن ماذا؟ قال: قدْ مَلَلْتُ معاشرة السِّباع والدواب، وضِقْتُ بها ذرعًا، وخرجتُ أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم؛ لقد ضاق صدري من هؤلاء الكَسالى والأقزام، الذين أجدهم حولي، فخرجت أبحث عن عملاق من الرِّجال وبطل من الأبطال، يملأ عيني برجولته وشخصِيَّته ويروِّح نفسي.

قلت له: لقد غرَّتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء، بالله لا تُتْعِب نفسك، وارجع أدراجك، فقد أجهدتُ نفسي وأنضيتُ ركابي، ونقَّبتُ في البلاد، فلمْ أرَ لهذا الكائن عينًا ولا أثرًا. فقال الشيخ: إليك عني أيها الرجل! فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي أعزُّه وجودًا وأبعدُه منالًا»[2].

حاجة العالم إلى الإنسان الكامل عالي الهمة أشدُّ اليوم من حاجته إلى القارّات الجديدة والبحار المجهولة، وأجل خطرًا، وأعظم قدرًا من أي شيءٍ سواه، فقد اجتمعت فيه من معاني الإسلام القوةُ والحياة والجمال والكمال فهو الضَّالة المنشودة والصورة الكاملة للإنسانية إن المسلم عالي الهمَّة المثالي يمتاز بين أهل الشك والظنّ بإيمانه ويقينه، وبين أهل الجبن

(١) ديوان هاشم الرفاعي «الأعمال الكاملة» (ص١٩٦ - ١٩٧).
(٢) «روائع إقبال» لأبي الحسن الندوي (ص٧٣).

والخوف بشجاعَته وقوته الروحيّة، وبين عُبَّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص، وبين عُبّاد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقيّاته وإنسانيته، وبين عُبّاد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرُّده من الشهوات وتمرُّده على موازين المجتمع الزائفة، وقيم الأشياء الحقيرة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكِبَر نفسه؛ يعيش برسالته ولرسالته. ذلك المسلم الحق الذي مهما اختلفت الأوضاع وتطوّرت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التي لا تتغيَّرُ ولا تتحوَّلُ، وأمّا ما عداه فزبَدٌ يذهب جفاءً، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، أمَّا ما عداه فشجرة اجْتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

«إنك أيها المسلم عالي الهمة في العالَم وحدك، وما عَداك سرابٌ خادع ودرهم زائف. إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق، وكل ما عداه في هذا العالم المادي وهُمٌ وطِلَّسْم ومجاز».

إن حاجة الكون والبشرية إلى المسلم عالي الهمة ليست بأقل من حاجتهما إلى الماء والهواء والنور، فمعاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق، التي تتكفَّل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها، ويتكفَّل المسلم عالي الهمة بإعلانها والقيام بها والجهاد في سبيلها، فلولاه هو لضاعت الغايات والرسالات وأصبحت سرًّا مكتومًا.

إذن فمركزه في العالم، وبقاؤه كبقاء الشمس والكواكب النيرّة، تنقرض الأجيال والأمم، وتحوّل الأنهار مجراها، وهو قائم لا يزول ولا يحول.

لا يُمكن أن ينقرض المسلم من العالم؛ لأن وجوده رمزٌ لرسالات الأنبياء، وإنَّ أذانه إعلانٌ للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى

ومحمد ﷺ: «المسلمُ رسالةُ الله الأخيرة، فلا يعتريها النسخُ والتبديل» وهو الحاضن للأمانة الخالدة، والرسالة الخالدة، والذي يعيش لغاية خالدة. إن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام الخضمّ وتتلاشَى في وجوده، والبحر لا يتغيرّ؛ فالبحر امتداد دائم، وتسلسل قائم لأجزاء متغيِّرة كبحر الحياة، وبحر الوجود تتبدَّل أمواجه -وهي أفراد البشر- ولا يتبدَّل كيانه.

□ ويقول في قصيدة أردية تكاد تسيل رقة وعذوبة: «لقد هبّت عليّ نفحة منعشة من نسيم السَّحر في الصباح الباكر فناجتني، وقالت لي: إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته ومركزه لا يليق به إلا عروش الملوك وأسرَّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف، ولا كرامة إلَّا بهذه «المعرفة»، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها، أصبحت من سَقَط المتاع، إنه يتربَّى في مدرسة شعري وأدبي، شباب لا يملكون درهمًا ولا دينارًا، ولكنهم يملكون صولة السلاطين، ويحسنون آداب الملوك، إن لك الخِيار، فاختر ما شئت، ولكنني بدوري، لم يعجبني الفرار من الحياة، والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هيأك الله - أيها الشاب المسلم- لاقتناص «هُما»[1]، وما هذه الطيور والأسماك التي تملأ العالم إلَّا لتتمرَّن عليها في بدء أمرك، ويتلهى بها غيرك. وما نُطْقك بالشهادتين -أيها المسلم- سواءً أكنت عربيًّا أو أعجميًّا، إلَّا حديثًا غريبًا، حتى يشهد بها قلبك»[2].

---

(١) طائر أسطوري في الأدب الفارسي والأردي. يضرب به المثل في اليُمن والسعادة، يقال: إنه ما أظل إنسانًا، وما طار فوق رأس إنسان إلا وكان ملكًا في يوم من الأيام.

(٢) «بال جبريل» (٦٧- ٦٨).

◻ ويقول في قصيدة خفيفة الوزن، قصيرة البحر، سهلة اللفظ، كأنها قطعة من نثر، أو حديث من أحاديث الناس: «إن كلَّ ما في العالم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحل زائل، وغائب آفل، أنت -أيها الإنسان المسلم- بطل المعركة، وقائد الجيش، وكلُّ ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيص وغالٍ، من جنودك وأتباعك.

أسفًا لك، أيها الرجل! لم تقدِّر نفسك، ولم تحسَب لها حسابًا، ما أشدَّ جهلَك، وما أضيقَ نظرك! إلى متى تجري وراء الدنيا الذليلة، وتعبدها وتخضع لها؟ إما أن ترفضها رفضًا باتًا، وتزهد فيها وتتبتَّل، وإما أن تملك ناصيتها وتسودُ وتحكم، لا منزلةَ بين المنزلتين، ولا توسُّط بين النهايتين».

◻ وهذا قليلٌ من كثير جدًّا، تطفح به كتبه، ودواوين شعره، وفي هذا بلاغٌ للشباب المسلمين الذين خضعوا لنظام التربية الحديثة، والفلسفات المادية، التي حَجبت عنهم شخصيتَهم، وآفاقَ عالم الروح والقلب، وأعماق النفس البشرية، ومرامي المؤمن القوي الطموح، ولم تصوِّر العالَمَ إلَّا سوقَ تجارة أو مركز إنتاج، أو حانوت خمر، أو بيت مقامرة، أو مكان تنافس للقيادة، وصراع في مجال الاقتصاد والسياسة، ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾.

خُلِق العالَم لعالي الهمّة:

◻ رحم الله إقبالَ القائل: «إن العَالَمَ تراثٌ للمؤمِن المجاهِد، لا يشاركه فيه أحدٌ، ولا أعدُّ مؤمنا كاملًا من لا يعتقد أن العالم خُلِق له».

نعم.. خَلَق كل شيءٍ لك، وخلقك له، فلا تنشغل بما خلقه لك عمَّا خلقك له.

وله مقام الإمامة والتوجيه:

إن المسلم لم يُخلَق ليندفع مع التيَّار، وليساير الرَّكب البشري حيث اتجَّه وسار؛ بل خُلِق ليوجِّه العالَم والمجتمع والمدنيَّة، ويفرضَ على البشرية اتجاهه، ويُملي عليها إرادته؛ لأنه صاحبُ الرسالة، وصاحبُ العلم واليقين؛ ولأنه المسؤول عن هذا العالَم وسيره واتجاهاته؛ فليس مقامُه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقامُ الإمامة والقيادة، ومقامُ الإرشاد والتوجيه، ومقامُ الآمر الناهي، إذا تنكَّر له الزمانُ، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادَّة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع، ويضعَ أوزاره، ويسالم الزمان، بل عليه أن يثورَ عليه وينازلَه، ويظلَّ في صراع معه وعراك، حتى يقضي اللهُ في أمره.

□ يقول في بيت: «يقول من لا خلاق له: دُر مع الدهر حيث دار، وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه؛ وأنا أقول إذا لم يُسالمك الزمان، فصارِعْه وحاربه، حتى يفيء إلى أمر الله».

ويرى أن المؤمنَ غيرُ مأذون بمجاراة الأوضاع؛ بل هو مكلَّفٌ بمصادمة الأوضاع الفاسدة، يردُّ الأمر إلى نصابه، ويقيمُ سالفة الدهر الغشوم، ويقيمُ العوجَ، ويُصلح الفاسد، وإن كلَّفه ذلك عملية الهدم والنقض، والعملية الجراحية؛ فإن كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والإصلاح.

□ يقول في بيتٍ: «على المسلم أن يربِّي في نفسه الروح، وينشيءَ في هيكله الحياة، ثم يحرق هذا العالَم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته، وينشئ عالمًا جديدًا».

عالي الهمة:

هو مؤذِّنُ الفجر في الليل البهيم، وإنَّ أذانَه لا يزال صيحةً تدوِّي في هدوء الليل وسكون الموت، فيُعيد إلى هذا العالَم النائم الناعس المتعَب حياتَه ونشاطه، ويؤذِّن بطلوع الصبح الصادق، وانصرام الليل الغاسق.

وعلى هذا الأذانِ الصارخ والنداء العالي، الذي ارتفع من جبل «أبو قُبيس» قبل ثلاثة عشر قرنًا، استيقظ هذا الكونُ بعد السُّبات العميق، الذي غطَّ فيه خمسةَ قرون وأكثر؛ وكان نفخةَ صُور للإنسانية الميتة والعالم المحتضَر، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الإنسانية، وإحياءِ الضمير البشري.

يقول في بيت: «إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه، أشرق العالَم واستيقظ الكون».

ويقول في قصيدة: «لستُ أعلم بالتأكيد مصدرَ هذا الصبح، الذي يطلعُ على هذا العالَم كلَّ يوم، ولستُ أعلم سرَّه؛ ولكني أعلم أن السَّحَر الذي يهتزُّ له هذا العالَم المظلم ويولِّي به ليل الإنسانية الحالك، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق»[١].

إن قوة عالي الهمَّة خارقة للعادة، مُحَيِّرَةٌ للعقدة، معجِزَة للبشر؛ لأنها مُسْتَمَدَّة من رسالته وإيمانه، فهو أداةٌ للقدرة الإلهية، وقوةٌ قاهرة، لا تصدُّها الجبال، ولا تقف في سبيلها البحار، «إن يد المؤمن أداةُ القدرة الإلهية، فهي غلَّابة، حلَّالة للعقد والمشكلات، فتَّاحةٌ للأبواب المقفلة، لَبِقة صَنَاع حاذقة. إن المؤمن جسمُه من تراب، فطرتُه من نور؛ عبدٌ متخلِّقٌ بأخلاق مولاه، قلبُه غني عن العالمين».

---

(١) «روائع إقبال» (ص٨٣- ٨٤).

لم يزل العالَم يعوزه لوعة ذلك القلب.

قد هزئ المسلمون المؤمنون في عصرهم الأول من الجبال والبحار، وشقُّوا طريقهم غير محتفلين بما يعترضهم من أشواكٍ وعقبات.

عالي الهمة:

يجمعُ بين التسامح، ورحابةِ الصدد، وكثرةِ الصفح، والشدَّة في التمسك بالدين، والغضبِ للحق، والثورةِ على الباطل، وشدةِ شكيمته إذا أَبى، ولا يكون المثَلَ الكاملَ لدينه، والصورة الصادقة للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوِّعة، فيجمعَ بين الشدَّةَ واللين والغضب والرحمة، والصلابة والمرونة، والعفَّة والنزاهة، ويكون في ذلك آيةً من آيات الله، ومعجزةً من معجزات الرسول ﷺ.

«إنه الميزان العادل، والقسطاسُ المستقيم به يُعلم رضا الله وسخطه، وبه يُعرف الحسنُ من القبيح، فما راق في نظره، فهو حسن، وما استقبحه فهو طائش، وفي عزائمه تتجلَّى إرادةُ الله.

وهو القرآنُ الناطق، وهو الدين يسعى على قدميه. ثم عن حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة، فالصبح يَطلع كل يوم، والليلُ يتبع النهار، لا تخلُّف فيه، ولا تناقض. وهو صاحبُ معانٍ كثيرة، ونغمةٍ واحدة، فهو كسورةِ «الرَّحمن» في القرآن، تتجدد معانيه وتتكرر فيه آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾».

□ وقد صدق الشاعر، فالمسلم لم يزل يُتحف كلَّ عصر بعلومه وتوجيهاته، ويُنير ظلماتِ كل عصر بنوره وضيائه، ويضربُ على وتر واحد، ويكرِّر رسالة الأنبياء، ويقول لكل جيل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم

﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، فهو كالصبح جديدٌ وقديم، فهو في جِدَّته ليس أجدُّ منه، وهو في قِدَمه ليس شيءٌ أقدم منه؛ هو قديمٌ لكنه يتجدَّد به العالم، ويتجدَّد به الكائنات، وتنتعش به القوى، وتستيقظُ به الأجسام والقلوب، والعقول؛ ثم جديدٌ بنفسه، تتجددُ قواه، ويتجددُ نشاطه، وتتفتحُ قريحته مع العصور؛ علمه سيَّار، وعقلُه مبتكر، ونفسُه طموح، وهمَّته وثَّابة، وهو كالمطر كلُّ قطرةٍ غيرُ الأولى، ولكنها قطراتُ مطر، كلها تحيي الأرض، وكلها تُنبت النبات، وكلها تَسقي المزارع والأشجار، وكلها تفتحُ الأزهار، وكلها تكوِّن الأنهار، وهو معنى قول النبي ﷺ: «**أمتي كالمطر لا يُدْرى أأوَّلُه خيرٌ أم آخرُه**».

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقًا:

□ ويقول محمد إقبال: «إن المسلم كالشمس إذا غَرَبت في جهة، طلعت في جهةٍ أخرى فلا تزال طالعة».

وقد صدق، فإن الإسلام لم ينكَّب في ناحية من نواحي العالم، ولم يخسر في جانب دولة إلَّا وقامت له دولةٌ في جانب آخر؛ ولم تسقط له رايةٌ إلَّا وخفقت له رايةٌ أخرى؛ ولم يغِب له نجم، إلَّا وطلع له نجمٌ آخر.

لقد كانت خسارةُ الأندلس الإسلامية كارثةً كبيرة، ومصابًا عظيمًا، ولكن عوَّض الإسلام بها بدولةٍ فتيَّة من أعظم دول العالم، هي دولة آل عثمان في تركيا قامت في نفس القارة الأوروبية، وجثَمت على صدر الدول والأمم التي انتزعت الأندلس الإسلامية، وأجلت المسلمين من وطنهم العربي الإسلامي.

وكان سقوطُ غرناطة، وأوج الدولة العثمانية، في عهد سليمان القانوني،

حادثَينِ في عصر واحد. ونُكِبَ العالم الإسلامي، ونُكِبَت بغدادُ بغارة التتار، وانطمست معالم الحضارةِ الإسلامية، وزُلزل المسلمون زلزالًا شديدًا، ولكن في نفس هذه الفترة كانت الدولةُ المسلمة في الهند تتسع وتزدهر.

وأُصيب العالَمُ الإسلامي بهزاتٍ عنيفة، وقواصمَ مؤلمة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الأوروبيين، فقد اقتسمت الدولةُ الأوروبية تراثَ الدولة العثمانية كمالٍ سائب، واغتصبت مملكتها في أفريقيا، وتقاسم الحلفاءُ سورية وفلسطين والعراق، ولكن تَبعَ هذا كلَّه اليقظةُ الإسلامية الهائلة، والوعيُ السياسي القويم، والطموحُ إلى الاستقلال والحرية، والحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيشُ بها العالَمَ الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

ونُكب المسلمون في العهد الأخير نكباتٍ عظيمةً في الشرق الأقصى والأوسط، وخسرت الدولُ العربية فلسطينَ العربية الإسلامية، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتانِ فتيتان في الشرق، إحداهما دولة باكستان والأخرى إندونيسيا.

وهذا لم يزل التاريخُ الإسلامي متأرجحًا بين الأسفل والأعلى؛ فما تسفَّل منه جانبٌ إلَّا وترفَّع جانب آخر، كالأرجوحة تمامًا، ولم تتوارَ شمسُه في أفق إلَّا وبزغت في أفق آخر، وذلك لأن الإسلامَ رسالةُ الله الأخيرة التي لا رسالةَ بعدها، والمسلمون هم الأمةُ الأخيرة، التي لا أمةَ بعدهم؛ فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة، وإذا هلكوا فقد غرِقت السفينة التي تحمل الذخيرة»[١].

---

(١) المصدر السابق (ص٨٥).

عالي الهمّة:

يعرفُ قيمةَ نفسه، وشرفَ إنسانيَّته، يعرف ذلك الجوَّ الفسيح الذي هيّأه الله لطيرانه وتحليقه، ويعرفُ تلك الكنوزَ البديعة، والقوى الجبَّارة، والمواهبَ العظيمة التي أودعها اللهُ في باطنه، يعرف معنى سجودِ الملائكة لأبيه آدم، والإشارةُ في ذلك، وأنه إذا كانت الملائكة الذين لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون الذين يتصرَّفون في هذا الكون بأمر الله، ويبلِّغون رسالاته، فإذا خضعوا لآدمَ أبيهم فقد خضع له الكونُ بالأَوْلى، ولذرِّيته إن استقاموا على منهج الله.

كَلِمَاتٌ للحياة:

«عجبًا لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفاق، وغابت عنك نفسُك، إلى متى تظل غافلًا جاهلًا؟ وتجلس ضائعًا عاطلًا، إنَّ نورك الوهَّاج أنار العالَم القديم، ونسخ الليلَ البهيم، ولا تزال (اليد البيضاء) التي ورثتَها عن موسى في كمِّك، تخطُّ حدودَ الآفاق الضيِّقة، فأنت السابقُ لها والفائق عليها، فقد كنتَ ولم تكن، وستكون ولا تكون، هل تخافُ الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟ لقد كان جديرًا بالموت أن يخافك، فأنت تكمن له وترصد به.

اعلم يقينًا، أن الكريم إذا وَهب شيئًا، لا يسلبُه ولا يشرده، وليس حتفُ ابن آدم في فراق الروح، إنما حتفُه في ضعف الإيمان، والحرمان من اليقين»[١].

□ «افتح عينيك -أيها الزهرُ النائم- مثلَ النرجس الذي لا يُطبق عينه

---

(١) «زبور عجم» لمحمد إقبال (ص١٦٤).

لحظة، ولا يَعرف الكرى إليه سبيلًا، لقد أغار على وكرنا الأعداء، ونهبوا كلَّ ما فيه، من كنوز وخيرات، ألا يكفي هدير الحمام، وصفيرُ الأذان، وأنينُ القلوب والأرواح أن يُوقظك؟! انتبه من هذا السُّبات العميق، الذي طال أمدُه واشتدَّت وطأته.

لقد بدأت الشمسُ رحلتها المباركة المتكررة، وارتفع عمودُ الصباح المنير في بحر الظلمات، وحَزَمت القوافلُ في الجبال والصحاري أمتعتها، وضربت أجراسَ الرحيل، فما لكِ أيتها العينُ الساهرة! التي خُلقت لمراقبة الإنسانية، وحراسة الضعفاء، تنامين، ولا تنظرين إلى ما يدورُ حولكِ من الأحداث والتقلُّبات، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمدُه، واشتدت وطأته.

لقد أصبح بحرُك ساكنًا كالصحراء، لقد فقد طبيعتَه وجمُد ووقف. فلا مدَّ فيه ولا جزْر، ولا زيادةَ فيه ولا نقص، عجبًا لهذا البحر الذي لا يَهيج ولا يموج، وليس فيه تمساحٌ طموحٌ مخامر، ولا موجٌ عارمٌ ثائر، لقد كان جديرًا بك أن تقفز من حدوده الضيقة الهادئة، وتفيضَ على البراري والقِفار والنِّجاد والأغوار، انتبه من سُباتك العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته.

اعلم أن الوطن جسدٌ من تراب، والدينُ هو الروح، ولا حياة للجسد والنفس، إلَّا بارتباط الجسد والروح، انهض أيُّها المسلم! وفي إحدى يديك «المصحف» وفي الأخرى «السيف»، فابجتماعهما تسعدُ البشرية، وتخصب المدينة، انتبه من السُبات العميق الذي طال أمدُه واشتدت وطأته.

أنت الناموسُ الأزلي حارسٌ وأمين، ولسيِّد هذا الكون يسار ويمين[1]، لقد كانت نشأتُك من التراب، ولكن بك قِوام العالم وبقاءُ الأمم، اشرب كأسًا فائضةً من اليقين، وانهض من حضيض الظن والتخمين، انتبهْ من السُبات العميق، الذي طال أمده، واشتدت وطأته.

الغِياث من الإفرنج الذين خلَبوا العقول، وسحَروا النفوس، الغياث مِن هؤلاء الذين خدعوا مرةً بالرقة والدلال، ومرةً بالقيود والأغلال، وتارة مثَّلوا دور «شيرين»، وطورًا لعبوا دور «أبرويز»[2]، لقد أصبح العالَم كله خرابًا يبابًا بإغارتهم وغزوهم.

يا بانيَ الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالَم من جديد، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته»[3].

□ «لقد هبَّتْ عليَّ نفحة مُنْعِشة من نسيم السَّحَر في الصباح فناجتني، وقالت لي: إنَّ الذي عرَف نفسه وعرف قيمته ومركزه، لا يليق به إلَّا عروشُ الملوك وأسِرَّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قُوام، ولا شرف ولا كرامة إلَّا بهذه «المعرفة»، فإذا ملكتَها ملكتَ العالم، وإذا فقدتها، أصبحت مِن سَقَط المتاع، إنه يتربَّى في مدرسة شعري وأدبي شبابٌ لا يملكون درهمًا ولا دينارًا، ولكنهم يملكون صولةَ السلاطين، ويُحسنون آداب

(١) يعني أنه آلة بيد القدرة الإلهية.

(٢) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند، تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال، و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها، واستأثر بها.

(٣) «زبور عجم» (ص١١٦- ١١٨) باختصار وتوسُّع، و«روائع إقبال» (ص٨٩- ٩٢) باختصار.

الملوك، إنَّ لك الخِيار، فاختر ما شئت.

ولكنني بدوري، لم يعجبني الفرار من الحياة، والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هيَّأك الله -أيها الشاب المسلم لاقتناص «هُما»[1]، وما هذه الطيور والأسماك التي تملأ العالم إلَّا للتمرُّن عليها في بَدء أمرك، ويتلهَّى بها غيرك. وما نُطقك بالشهادتيْن -أيها المسلم- سواءً كنت عربيًّا أو أعجميًّا، إلَّا حديثًا غريبًا، حتى يشهد بك قلبك»[2].

«إنَّ كلَّ ما في العالَم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكيَّة، راحلٌ زائل، وغائب آفِل، أنت -عالي الهمة- بطل المعركة، وقائدُ الجيش، وكلُّ ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيصٍ وغالٍ، من جنودك وأتباعك.

أسفًا لك، أيها الرجل! لم تقدِّر نفسك، ولم تحسِب لها حسابًا، ما أشدَّ جهلك، وما أضيقَ نظرك! إلى متى تجري وراء الدنيا الذليلة وتعبدها وتخضع لها؟ إمَّا أن ترفضها رفضًا باتًّا، وتزهد فيها وتتبتَّل، وإما أن تملك ناصيتها وتَسُود وتحكم، لا منزلة بين المنزلتين، ولا توسطَّ بين الشهادتين».

بل نقول بمرامى المؤمن القوي الطموح.. ازهد وتبتل واملك ناصيتها وسد واحكم كدواد وسليمان عليهما السلام.. وعمر بن عبد العزيز..

فنحن أناس لا توسُّطَ عندنا   لنا الصَّدْرُ دون العالِمين أو القبرُ

---

(١) طائر أُسْطُوري في الأدب الفارسي والأردي، يُضرَب به المثل في اليُمْن والسعادة، يُقال: أنه ما أظلَّ إنسانًا، وما طار فوق رأسه إنسان إلاَّ وكان ملكًا في يوم من الأيام!!!.

(٢) «بال جبريل» لإقبال (ص٦٧ - ٦٨).

□ إن السجدة التي هي جديرةٌ بالاهتمام هي السجدة التي تحرِّم عليك كل سجدة لغير الله.

□ إن هذا الكونَ الفسيح ليس وكرُك الذي تستريح فيه، والغايةُ التي تنتهي إليها؛ ليست هذه الأرض، التي مادتُها التراب، مصدرُ روحك المتوقِّدة الوثَّابة، وعاطفتُك الملتهبة؛ أنت مادةُ الكون، وليس الكون مادَّتُك.

كُن في تقدُّم دائم، ورحلة دائمة، وحَطِّم هذا الجبل الأصمَّ الذي يعترض في طريقك، وتمرَّد على هذا الزمان والمكان، وتحرَّر من قيودهما، وانطلق من حدودهما، فإن المؤمن إذا عرف قيمةَ نفسه اقتنص هذا العالم، واقتنص هذه الأرضَ والسماء في بعض ما يقتنص».

«إن هنالك عوالمَ وأكوانًا، لم تقع عليها عينٌ بعد؛ فإن ضمير الوجود لم يفرغ جَعبته، ولا يزال يأتي بجديد؛ وإن هذه العوالِمَ متشوِّقة لهجومك، وغارتك، وزحفك؛ متشوِّقة لأبكار أفكارك، وبدائع أعمالك؛ إن هذا العالَم يدور دورتَه؛ لتنكشف عليك نفسك وحقيقتك.

أنت فاتحُ هذا العالم، ويعجزُ البيانُ عن وصفك، وتعجزُ الملائكة عن غاياتك»[1].

فَدَتْ نفسي وما مَلَكت يميني ... فوارسَ صَدَّقَتْ فيهم ظنوني
فوارسَ لا يَمَلُّون المنايا ... إذا دارت رَحَى الحرب الزبون[2]

---

(١) «روائع إقبال» (ص١٣٩- ١٤٠).

(٢) البيتان لأبي الغول الطهوي. والحرب الزَّبون: التي تصدم الناس وتدفعهم.

يا عالي الهمة أنت حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح:

جدِّد في بني أمَّتك الإيمان واليقين، فقد عراهم الظنُّ والتخمين، إنَّ مقامك ومنزلك وراءَ هذه القبة الزرقاءِ والسماوات العُلَى، مقامك في غُرف الفردوس الأعلى.. ينظر إليك الذين في أرض الجنة كما ينظرُ الناس إلى النجم الغابر في الأفق لتفاضل ما بينهم.

إنَّ رَكْبَك يمشي فوق النجوم النَّيِّرة والكواكب المتلألئة.

إنَّ هذا الكونَ بما فيه ومن فيه، سائرٌ إلى الزَّوال والفناء، ولكنَّك تملك الآمادَ والأبعاد، فإنك أنت رسالةُ الله الخالدةُ الأخيرة، فأنت خالدٌ مع خلود رسالتك[1]، ودائمٌ بدوام دورك ومهمتك.

□ إن دماءك القانيةَ عطرُ حِنَّاءٍ لعروس الوردة الحمراء؛ فبدمائك السخيَّة الطاهرة تنتعشُ الورود والأزهار، ويَجري في عرقها ماءُ الحياة.

□ إن نسبك المعنوي متَّصل بسيدنا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فأنت باني الحرم ورافع قواعد البيت العتيق.

□ إن فطرتَك حارسةٌ أمينة لإمكانات الحياة وأسرار الوجود، فأنت المحَكُّ الأصيلُ لجوهر الكون وسرِّ الحياة، وإنَّ ما حملته النُّبُوَّة من تحفة غالية وهدية ثمينة من عالم الماء والتراب إلى عالَم الخلود الذي لا يزول ولا يحول، إنما هي أنت، وقد انكشف هذا السرُّ الدقيق بماضي الأمة الحنيفية والملَّة السمحة البيضاء، إنك أنت الوصيُّ على هذه الشعوب والأمم.

□ عُدْ مَرَّةً ثانيةً إلى دروس الصدق والعدل والشجاعة، فالكونُ في

---

(١) وَضَع نصب عينيْك قول الله لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

انتظارك، وقيادة العالَم تتطلع إليك وتتشرَّف نحوك.

◻ حَطِّم -أيها المسلم- أصنامَ اللون واللحم والدم، وذُبْ في بوتقة المِلَّة الحنيفية السمحة، لتُصهَر صهرًا جديدًا، فلا فروقَ ولا امتيازات، ولا جنسيَّات ووطنيَّات، ولا عصبيَّات وقوميَّات.

◻ إلى متى تتمتَّعُ برفقة الطيور المغرِّدة في الحديقة الفيحاء بين الأغصان الرطبة البليلة، أليس بجناحيْك قوةُ طيران الصقور المحلِّقة في الفضاء، التي تُنشئ أوكارها في الجبال الجرداء والشمَّاء.

◻ إنه لا تُغني السيوف الصارمة، والعقول الراجحة، في الرِّقِّ والعبوديَّة فنيلًا، ولا تتحطَّم سلاسل العبوديَّة وأصفادَ الذُّلِّ والصَّغَار إلَّا بطعم الإيمان وذَوْق اليقين.

مَن الذي يستطيع أن يقدِّر قوةَ المؤمن وصولَتَهُ؟! إنَّ نظرةً منه والتفاتةً تكفي لتغيير المقادير، وقَلْب الأوضاع، وهل الولاية والصلاحُ والغلبة والسلطان، وعِلْم الأسماء وسعةُ الإدراك، إلَّا تفسيرًا لكلمة الإيمان».

ولكِنَّ البصيرة الإبراهيمية لا تتأتَّى بسهولة، ولا تُوهَب مجَّانًا، فكم من الأهواء والأطماع تختفي في مسارب النفس، وتكوِّن لها أعشاشًا وأوكارًا.

◻ ألَا إن اليقين المحكم الجازم، والعملَ المستمر الحاسم، ومحبَّةَ الرسول الأعظم فاتحِ الشعوب والأمم ﷺ هي السيوفُ المسلولةُ بأيدي الرجال الأبطال في معركة الحياة.

◻ ماذا ينبغي أن يتحلَّى به الرَّجُل؟ قلبٌ سليم، ونبْعٌ صافٍ، ودمٌ فائر، ونظرةٌ عفيفة، ونفْسٌ قلقة ولوعة طموحة.

□أنت أيها المسلم سِرُّ الوجود، فانكشِف على نفسك قبل أن تكشف على غيرك، وبحْ بِسِرِّك لِسِرِّك، وكن أمين «الذات» وترجمان أمر الله.

□لقد قطَّع الهوى والطَّمَع بني آدم إِربًا إربًا، ومزَّقهم شرَّ ممزَّق، فكُنْ أنت -أيها المسلم- نغمة الأُخُوة الحانية، ولسان الحبِّ البليغ.

□ يا ملتزمَ الساحل واللاجئ إلى الشاطئ، اقفزْ بنفسك في خضم البحر فلا تحدَّك حدود، ولا تغلَّك قيود، لقد يُرَى على جناحيْك غبار اللون والنسل والوطن، فرَفْرفْ بجناحيْك يا طائِرَ الحرم قل أن تُحلِّق في الفضاء وانفُضْ عنك هذا الغُبَار.

□ اسبر أغوار قلبك ونفسك، وانزل في الأعماق، فإنها سرُّك، وارفعْ عن نفسِك نيْر الصباح والمساء وحطم كل القيود والأغلال.. كل قيود الأرض وكل أوهاق وأغلال العبودية لكل ما سوى الله، تعرف قدر الحرية، فتمام الحرية في العبودية لرب البريَّة، والمكاتب عبدٌ ما بقي عليه درهم.

وخُلِقْتَ طليقًا كطيف النسيم، وحُرًّا كنور الضُّحَى في سَمَاه
تُحلِّق كالطَّيْر أين اندفَعتَ، وتَشدو بما شاءَ وحيُ الإلهْ
تُسَبِّح بين ورود الصباح، وتنعمُ بالنُّورِ أنَّى تراهْ
وتمشي -كما شئت- بين المُرُوج، وتقطف ورْد الرُّبَا في رُباهْ

CBEDEDCBCBED

كذا صاغك الله، يا ابن الوجود، وألْقَتْك في الكونِ هذي الحياهْ
فمالك ترضى بِذُلِّ القيود، وتَحْني لمن كَبَّلُوك الجباه؟
وتُسكِتُ في النَفس صوت السماء القويَّ إذا ما تَغنَّى صداه؟

وتُطبَقُ أجفانَك النَّيِّرات عن الفجْر، والفجرُ عذْبٌ ضياه؟
وتَقنَعُ بالعيش بين الكهوف فأين النشيد؟ وأين الإباه؟
أَتَخْشى نداء السماء الجميل؟ أترهبُ نور الفضا في ضُحَاه؟
أَلَا نهضْ وسِرْ في سبيل الحياة، فمن نام لم تنتظرْهُ الحياه؟
ولا تخش ممَّا وراء التِّلاع.. فما ثَمَّ إلَّا الضُّحى في صِبَاه..
وإلَّا ربيعُ الوجود الغريرُ، يطرِّزُ بالورد ضافي رداه..
وإلا أريجُ الزهور الصِّباحِ، ونور الأشعة بين المياه
وإلَّا حَمامُ المروج الأنيقُ، يُغرِّدُ، منطلِقًا في غناه..
إلى النُّور! فالنورُ عذب جميلٌ، إلى النور! فالنور وصف الإلهْ

□ إذا صادَفَتْك معركة الحياة فكُنْ لها حديدًا صُلْبًا، وإذا غازلتْك ليلة الحُبِّ فكُن لها حريرًا ناعِمًا، شُقَّ لك الطريقَ في التِباب القفار، وحَطِّمْ الجبال بسيْلك العَرِم وتيارك العنيف، وإن اعترضتك حديقة في الطريق، فناغمها بجدولك الجميل المنساب، الذي له خرير يُسكِرُ النفوسَ ويُبْهِرُ الألباب.

□ إنَّ علمك وحبَّك لا يعرفانِ الثغور والحدود، ولا يعتريهما الزَّوال والفناء، وليس في قيثارةِ الكون أنشودةٌ أحلى منك.

□ عَلِّم البلابل دروس التغريد، وانفخ في الطيور رُوح الخِفَّة والنَّشاط، وافتح أكمامَ الزُّهور والرياحين، فأنت نسيمُ السَّحَر، ونفحة الروضة النَّدِيَّة.

□ لقد التهبت جمرةُ الحب والإيمان والنخوة في بلاد الإسلام كَرَّةً ثانية، وأصبحت الأرض حلبةً للفرسان من كُلِّ مسلم عالي الهمّة مجيد، ومن

الأُباه الشُّمِّ ذوي الهِمَّة القعساء والنَّظر البعيد.

□ إن اليقين المسلم عالي الهمَّة وإيمانه في عالَم الظَّن والتخمين، كمصباح الرَّاهب في الصحراء في ظلمات الليل البهيم، ما الذي أصاح بعروش كِسرى وقيصر، وقضى على ظلمهما وجوْرهما؟ إنه قوّة علي، وفقْر أبي ذر، وصِدْق سلمان.

□ انظرْ إلى ركْب المؤمنين الأحرار، كيف يَشُقُّ طريقه في أُبَّهَةٍ وجمال، ويتطلَّعُ إليه من فتحات الأبواب أسْرَى القرون والأجيال.

□ إنَّ هذه الشُّعلة مِن طين، عندما تتحلَّى بالإيمان واليقين، تكتسي بأجنحة الرُّوحِ الأمين، وتطيرُ بها في العالَمين.